العلاقات بين الدولة السعودية الأولي ومملكة فارس

الدكتور: صالح بن محمود السعدون *

المقدمة:

تناول كثير من المؤرخين العلاقة بين الدولة السعودية الأولى والمملكة الفارسية من خلال شذرات متفرقة بين ثنايا الحوادث التاريخية، فتارة يتناولونها في ظل قضية الحج، وتارة أخرى في ظل حادثة تاريخية كحادثة غزوة كربلاء، وثالثة من خلال العلاقات السعودية مع البحرين أو عمان، ولكن لم أجد فيما وقعت عليه يدي من بحوث من يفرد لهذا الموضوع بحثا مستقلا يتناول فيه مجمل العلاقات بين الدولتين من كافة جوانبها المذهبية والسياسية والعسكرية.

وسيحاول هذا البحث الإجابة عن كثير من الفرضيات والأسئلة المهمة في العلاقات بين الطرفين؛ فهل قامت الدولة السعودية بمنع الحجاج الشيعة الفرس من المرور بأراضيها إلى مكة المكرمة –كما يورده بعض المؤرخين القدامى والمحدثين–؟ وما القضايا الشائكة في العلاقات بين الطرفين التي أدت أو ساهمت في تأزم تلك العلاقات إلى درجة التلويح بالحرب العسكرية بين الطرفين؟ وما الخطط التي كانت في جعبة كل طرف إزاء الآخر في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي؟.

* بكالوريوس تربية تخصص تاريخ جامعة الملك سعود في الرياض.

- ماجستير تاريخ أوربي بالجامعة نفسها.
- دكتوراه في التاريخ الإسلامي الحديث جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٢٤هـ.
- عمل مديرا عاما للتعليم بمنطقة الجوف.
- يعمل الآن أستاذا مساعدا ورئيسا لقسم المقررات العامة في كلية التربية والآداب في جامعة الحدود الشمالية.

وقد رجع الباحث إلى مجموعة من الوثائق الأصلية التي يمكن البناء عليها في بلورة رأي تاريخي واقعي؛ إلى جانب مختلف المصادر السعودية والفارسية المترجمة والعراقية والعربية وبعض المصادر الأجنبية المعاصرة لتلك الحقبة، والتي تشكل مادة تاريخية غزيرة وتورد كثيرا من الحقائق حول هذا الموضوع بالذات من حيث تدوين بعض الحقائق التاريخية التي لم يتسن لمؤرخي الدولة السعودية النجديين المعاصرين الاطلاع عليها لبعدهم عن مصادر القرار؛ إلى جانب فقدان الوثائق الحكومية السعودية التي أثبت البحث أنها صودرت من قبل إبراهيم باشا بعد سقوط الدرعية مباشرة؛ وقد اعتمد الباحث على مقارنة تلك الروايات والنصوص إلى جانب التحليل الموضوعي المرتكز على الحقائق التاريخية.

كما قسم الباحث البحث إلى عدة مباحث تناول في المبحث الأول نبذة عن قيام الدولة السعودية الأولى وسياساتها العامة وتحدث في المبحث الثاني عن قيام المملكة الفارسية القاجارية وتوجهاتها العامة؛ بينما فصل المبحث الثالث العلاقات بين الدولتين السعودية العربية بجزيرة العرب والقاجارية الفارسية بإيران متمثلة في نقاط التماس الأساسية من خلال قضيتين القضية الأولى هي قضية الحج وسلامة قوافل الحجاج الفارسية المارة بالأراضي السعودية؛ أما الثانية فكانت حادثة غزو الجيش السعودي لمدينة كربلاء ذات البعد المذهبي لدى إيران، بينما اشتمل المبحث الرابع على خطط الطرفين ضد بعضهما والحرب الباردة بينهما؛ سواء كان ذلك من خلال نقاط تماس وصراع غير مباشرة كعمان والبحرين؛ أو من خلال التهديد بالغزو المباشر أو المشروعات والاتصالات غير المباشرة مع أطراف أخرى هدفها الحرب التي يريدها كل من الطرفين ضد الآخر. ثم تناول المبحث الخامس موقف المملكة الفارسية من سقوط الدولة السعودية الأولى. وأخيرا الخاتمة التي تناولت نتائج البحث.

المبحث الأول- الدولة السعودية الأولى: قيامها وتوجهاتها:

كانت الجزيرة العربية تئن تحت عوامل التخلف والبعد عن كل مصادر الحضارة الحديثة، وقد ساهمت عمليات انتقال الخلافة من المدينة إلى الكوفة فدمشق فبغداد فالقاهرة إلى أن أهمل الخلفاء الأمويون والعباسيون وكذلك الفاطميون ثم من جاء بعدهم خلال ألف سنة من الزمن بلغت الحضارة الإنسانية فيه من التقدم شأوا عظيما أهملوا شئون جزيرة العرب وسكانها، حتى إنه إذا كانت الدولة الأموية والعباسية قد أبدت كل منهما اهتماما بطريق البريد أو الحج؛ فإن الدولة العثمانية اقتصر اهتمامها بشئون جزيرة العرب في الغالب على الحرمين الشريفين أو بالدفاع عن الحدود من غارات أعداء الأمة.

وقد عانت تلك الدول في سبيل حماية طريق الحج بين بلاد الشام ومصر والعراق من جهة وبين بلاد الحجاز من جهة أخرى، ولعلنا نجد شذرات من الأخبار أو الأعمال التطويرية والحضارية التي قامت بها تلك الدول (الأمويون، العباسيون، الأيوبيون، المماليك ثم العثمانيون) أو شخصيات كبيرة فيها؛ فقد أسعفنا التاريخ أن تلك الأعمال قد تصل إلى إصلاح الطريق بين بغداد ومكة أو بين المدينة ودمشق، كما فعلت زبيدة بنت جعفر زوجة هارون الرشيد رحمها الله حين أصلحت الطريق على حسابها الخاص بين بغداد ومكة وعمرته بالاستراحات وبالبرك التي تملأ بالمياه -كما يذكر المؤرخون- ربما لأن زوجها كان يغزو عاما ويحج عاما، أضف إلى ذلك أنها تندرج في أعمال الخير والبر وحب الإصلاح لدى تلك الشخصيات.

كانت الطرق بين مختلف الأقاليم بجزيرة العرب الأخرى تعاني من قلة الإصلاح؛ أضف إلى ذلك عدم تطوير الوسائل الزراعية والصناعية بدءا من السدود إلى شق الأنهار والتي كان قد أبدى العرب اهتماما بشقها في الجنوب الغربي من البصرة منذ السنوات الأولى من فتحهم للعراق وذلك لاحتياجاتهم الأمنية والزراعية حينئذ؛ حيث شق أحدها

مع وسط البصرة وسمي باسم "نهر عمر"، بيد أن الألف سنة بعد الخلفاء الراشدين لم تنل جزيرة العرب ما تستحقه [١].

ولهذا كله فقد غاصت جزيرة العرب في ظلام من التخلف عبر هذه العصور ما عدا أرض الحرمين الشريفين التي يأتي لها الحجاج من أصقاع الأرض؛ فكانت عواصم الخلافة تطور تلك الأراضي المقدسة قدر المستطاع، إلى جانب إضاءات لفترات قصيرة من الزمن هنا أو هناك كاليمن وعمان أو الأحساء في ظل دويلات محلية أو إقليمية لم تبلغ شأوا حضاريا كبيرا يمكنها من المساهمة في الحضارة الإنسانية عموما وتطوير الحضارة العربية المحلية خصوصا.

كان التخلف بجزيرة العرب شاملا على المستوى العلمي والصناعي والزراعي، وحتى الديني الذي تراجع تبعا للأمية والعزلة؛ حيث كانت أرض جزيرة العرب مهبط الوحي ومنطلق الإسلام إلى بقية أصقاع المعمورة؛ تراجع إلى أنواع من البدع والخرافات [٢].

في هذه الأحوال العامة كان ظهور الشيخ المصلح محمد بن عبد الوهاب في منتصف القرن الثاني عشر الهجري: الذي كان قد بدأ مشروعه الإصلاحي في العيينة؛ ولكن حين أبلغ أمير العيينة عثمان بن معمر الشيخ محمد بن عبد الوهاب بعدم قدرته على رفض ضغوط الزعيم الخالدي سليمان بن محمد آل حميد قائلا: ((إن سليمان أمرنا بقتلك، ولا نقدر على إغضابه ولا مخالفة أمره، لأنه لا طاقة لنا بحربه، وليس من الشيم أن نؤذيك في بلدنا مع علمك وقرابتك، فشأنك ونفسك وخل لنا بلادنا)) ثم أردف

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.- القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٦٢م، ج ٣ ص ٥٩٢- ٥٩٣. إبراهيم فصيح بن السيد صبغة الله الحيدري البغدادي. عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد.- ط ١- بيروت: الدار العربية للموسوعات، ١٩٩٩م، ص ١٦٢.

(٢) إيف بيسون. ابن سعود ملك الصحراء تأسيس المملكة العربية السعودية؛ ترجمة عبد الله ابن حمد الدليمى وعبد الله بن الربيعي.- الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م/، ص ٢٢؛ انظر: ابن غنام. تاريخ نجد؛ تحقيق ناصر الدين الأسد.- ط ٤.- بيروت: دار الشروق، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م؛ ص ١٤- ٢٢.

قائلا لبعض فرسانه: ((اركبوا مع هذا الرجل إلى ما يريد فقال الشيخ: أريد الدرعية ...)) [١]؛ في تلك اللحظة التاريخية قدر للدرعية أن تحتضن تلك الصحوة العربية الإسلامية.

توجه الشيخ محمد إلى هناك في يوم لم يحدده المؤرخون من أيام عام ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م، في تلك اللحظة التاريخية كان القدر يهيء الدرعية حاكما ومحكومين لأداء دور كبير في السياسة الإقليمية في الشرق الأدنى وتأثير كبير أيضا في السياسة الدولية في تلك الحقبة.

وبالرغم من أن أهل الدرعية كما يقول صاحب كتاب: (حجازسياحتنامه سي) أن: ((أهل الدرعية وإن كانوا قلة من حيث العدد؛ فقد كانت حكومتهم وسطا من حيث القوة بين الحكومات الصغيرة بنجد في ذلك الزمان؛ لأنهم وصلوا إلى أعلى درجة من حيث الشجاعة في القتال، وكانوا يقاومون هجمات ابن معمر من الشمال ...)) كما فرضت كلمتها في ميزان القوة مع الرياض وأفشلت هجوم الأحساء [٢].

وهو ما يعني أنه بالرغم من أن الدرعية لم تبلغ من القوة آنذاك ما يؤهلها لفرض نفوذها على الإمارات النجدية المجاورة لها في منطقة العارض من نجد؛ غير أنها كانت قادرة أن توصل كلمتها فيما يتعلق بالسياسات الحلية لتلك المنطقة، لقد كانت إمارة لديها رغبة في تغيير الواقع السياسي في منطقة العارض من نجد بدليل ما ذكرناه آنفا من مواقف سياسية مع العيينة والرياض والأحساء؛ وذلك حتى قبل أن تضع الدرعية مبادئ الحركة الإصلاحية كسياسة ثابتة لها؛ ولعل ذلك هو ما أهل زعيمها أن يقبل بذلك المشروع الإصلاحي الكبير.

---

(١) ابن بشر. عنوان المجد في تاريخ نجد؛ تحقيق عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ، ج ١.- ط٤.- الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص ٤٠.

(٢) عبد الفتاح أبوعليه. دراسة حول المخطوط التركي، حجازسياحتنامة سي "السياحة الحجازية" لـ سلويلمز أوغلو شفيق بن علي كمالي باشا.- الرياض: دار المريخ للنشر، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ٤١؛ أنظر أيضا: ابن عثيمين، المرجع السابق، ص ٨٢.

وفي ذلك اللقاء التاريخي؛ قال محمد بن سعود أمير تلك البلدة مخاطبا الشيخ بكلمات تعني التأييد والمناصرة: ((أبشر ببلاد خير من بلادك، وبالعز والمنعة، فقال الشيخ وأنا أبشرك بالعز والتمكين والنصر المبين)) وبين الشيخ للأمير أن من عمل بكلمة لا إله إلا الله ونصرها ((ملك البلاد والعباد))، ثم طرح المشروع السياسي بشكل موجز ومحدد قائلا: ((وأنت ترى نجدا كلها وأقطارها أطبقت على الشرك والجهل والفرقة والاختلاف والقتال لبعضهم بعضا، فأرجو أن تكون إماما يجتمع عليه المسلمون وذريتك من بعدك)) [(١)].

إن المشروع الذي يشتمل على الجوانب السياسية والدينية والاجتماعية والذي عرضه الشيخ على الأمير أو البرنامج السياسي للدعوة الإصلاحية يمكن تفصيله بما يلي:

١. أن يسمى أمير الدرعية في النظام الجديد (الإمام) الذي هو إمام للمسلمين وليس للدرعية فحسب، وأن يكون الحكم وراثيا من بعده لذريته.
٢. إن نجدا تعاني من (الفرقة والاختلاف)، وهو ما يعني طرح مشروع توحيد منطقة نجد كلها تحت لواء الدولة الجديدة، وهو الجانب السياسي والاجتماعي في هذا المشروع.
٣. إن نجدا في هذا الاتفاق هي المنطقة الجغرافية التي حددها الاتفاق لتكون حدود الدولة الجديدة المزمع العمل على توحيدها في ظل هذا المشروع إبان المرحلة الزمنية التي تم فيها التعاهد بينهما على هذا الاتفاق، ذلك أن الشيخ لا يمكنه أن يطرح مشروعا توحيديا أكبر من قدرة أمير الدرعية على تنفيذه في تلك الظروف وتلك المرحلة.
٤. العمل على فرض الأمن ليشمل منطقة نجد قاطبة وكذلك على القرى والمدن والقبائل فيها وإيقاف أهالي نجد عن ((القتال بعضهم بعضا)) من غزوات قبلية

(١) ابن بشر، المصدر السابق، ج ١، ص ٤٢.

وحروب إقليمية، وهو ما يعني فرض نفوذ الدولة على جميع هذه المنطقة، ومنع الغزوات فيما بين المدن النجدية أو بين القبائل في نجد فيما بينها وبين بعضها البعض أو غزوات تلك القبائل على القرى والمدن النجدية ذاتها.

٥. إن نجدا تعاني كغيرها من الأقاليم من مظاهر البدع، وهو يعني تضمن هذا البرنامج، برنامجا دينيا توعويا وإصلاحيا للعقيدة التي أفسدها دخول بعض البدع في عبادة الناس لله وتوعيتهم لتوحيد الله وإفراده بالعبادة، إلى جانب برنامج تعليمي تربوي لنشر العلم بدلا من الجهل المنتشر بين الناس.

٦. بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب ما كان عليه الرسول صلي الله عليه وسلم وأصحابه ((من الدعوة إلى التوحيد والقيام على نصره والقتال عليه)) وهذا يعني أن البرنامج في نهاية المطاف يكمل بناء الدولة في منهج رصين فهذه الإشارة الصريحة لـ ((القتال عليه)) تعني أنه لابد للدولة من قوة عسكرية تطبق هذا البرنامج وتقاتل عليه لمن يعلن الحرب عليها أو ربما لمن يأبى الانصياع لمنهجها، كما تعني أن البرنامج العسكري وتأسيس جيش للدولة واضح في ذهنية الشيخ والأمير معا، فمن المبايعة وتأسيس النظام إلى إرساء الأمن والتعليم والتوعية وتوحيد المنطقة والقتال على إقرار الجميع بالمبادئ التي قامت عليها الدولة، وهو ما يعني أن الجيش كتنظيم عسكري والجهاد كمنهج عقائدي قد تم إقراره في هذا الاتفاق.

وكما ترى ايلفيرا أراسلي أن التحالف الديني- السياسي ما بين حاكم هذه المدينة الدرعية وغير الكبيرة الأمير محمد بن سعود وبين الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد ((أصبح نقطة انعطاف في تاريخ الجزيرة العربية ...)) [(١)].

---

(١) ايلفيرا أراسلي. المملكة العربية السعودية بعيون زوجة دبلوماسي.- ط ١.- دار غيناء للنشر، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص ١٦٠؛ الموسوعة العربية العالمية، الطبعة الثانية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م الجزء العاشر، ص ٤٧٢.

لقد دعا محمد بن عبد الوهاب إلى ((عقيدة أصولية تطالب بالعودة إلى أنقى أشكال الإسلام وترفض الأضرحة وشفاعة الأولياء، كانت عقيدته قوية وهادية، وتبشر بالتغيير بالقول وقوة السيف)) (١).

وبعد سنتين قامت الرياض بشن حرب لا هوادة فيها ضد المدن التابعة للدرعية كمنفوحة بحيث أجبرت الدرعية على الدفاع عن نفسها أولا (٢)؛ ثم بعد ذلك؛ قامت الدولة السعودية بتعديل سياستها السلمية إلى ضم الأقاليم المجاورة بالقوة العسكرية، وقد ظلت وما فتئت تتوسع حتى قبيل سنوات قليلة من سقوطها، بل قد يكون الرأي الأصح أنه لم تكن الدولة قد أجرت أية تعديلات على سياسات التمدد والتوسع وفق إستراتيجيتها المعروفة بضم كل الأراضي الصحراوية حتى عام ١٢٢٥هـ على الأقل، وهو الأمر أو قل تلك السياسة التي أعلنها أو صرح بها ولي العهد للدولة السعودية سعود بن عبد العزيز في عام ١٢١٤هـ/ ١٧٩٩م في اجتماع ضم والده الإمام عبد العزيز ابن محمد مع مندوب والي بغداد سليمان باشا وهو عبد العزيز الشاوي الذي قدم إلى الدرعية بعد انتهاء موسم الحج السابق، وكان قد حضر للدرعية للتباحث بشأن مطالبات الدرعية المتواضعة حيال جريمة النجف البشعة التي قام بها الخزاعل -بتحريض من شيخ المنتفق- بقتل ثلاثمائة من تجار الدرعية ومصادرة أموالهم (٣).

ومع أن مطالبات حكومة الدرعية اقتصرت على دفع الجناة أو حكومة بغداد الدية لذوي التجار الذين قتلوا على يد رجال قبيلة الخزاعل، فإن حكومة بغداد وموفدها الشاوي رفض مطالب الدرعية، وحينها غضب ولي العهد السعودي وقام من الاجتماع

---

(١) راندال بيكر. مملكة الحجاز الصراع بين الشريف حسين وأل سعود؛ ترجمة صادق عبد علي الركابي.- ط ١.- عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م، ص ٢٥٦.

(٢) ابن غنام، المصدر السابق، القسم الثاني، ص ٩٦- ٩٧. ابن عثيمين.- ط ١.- تاريخ المملكة العربية السعودية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ج ١ ص ٩١- ٩٢.

(٣) هارفردجونز بريدجز؛ السير. موجز تاريخ الوهابي؛ ترجمة ودراسة وتعليق عويضة بن متيريك الجهني.- الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م؛ ص ٩٦- ٩٧؛ الموسوعة العربية العالمية، المرجع السابق، ج ١٠، ص ٤٧٤.

غاضبا متوعدا وقال : ((أما كفي والي الوزير أننا تاركوه يحكم في بغداد، والله عن قريب ترى جميع غرب الفرات لنا، وشرقيه له)) [1].

هنا حدد الأمير سعود بن عبد العزيز سياسة الدولة السعودية الأولى في تلك المرحلة بدقة متناهية ، فالمناطق الصحراوية الشاسعة بجزيرة العرب وبلاد الشام في تلك المناطق المحاذية لدمشق وحمص وحماة وحلب شرقا إلى جانب غرب الفرات من صحراء العراق كلها مناطق مستهدفة من الدولة السعودية الأولى، فكأن الشعار المرفوع بقوة من حكومة الدرعية هو (الصحراء لنا).

وقد توسعت الدرعية أولا في بلاد نجد من جبل شمر شمالا وحتى وادي الدواسر والربع الخالي جنوبا؛ بحدود عام ١٢٠٢هـ؛ ثم ضمت الأحساء بشكل نهائي في عام ١٢١٠هـ وقاومت المشروع العراقي- العثماني بطرد نفوذها من الأحساء حتى عام ١٢١٣هـ وفي الوقت الذي وقعت فيه صلحا مع الأشراف بالحجاز عام ١٢١٣هـ كانت قد بدأت في ضم سواحل الخليج العربي؛ وانشغلت بعمان؛ كانت تعمل على جبهة العراق وجبهة عسير واليمن ثم الحجاز؛ بحيث وصلت إلى أقصى اتساعها تطرق أبواب بغداد ودمشق وفلسطين بحلول عام ١٢٢٥هـ؛ قبل أن يبدأ محمد على باشا والى مصر بغزوها من الغرب.

وهنا كان ظهور الدولة السعودية على مسرح الأحداث حدثاً ذا أهمية خاصة، وكما يقول ج. ل. روسو في تقريره عام ١٨٠٨م لحكومته الفرنسية: ((إن دعوة ابن عبد الوهاب وتحالفه مع أمير الدرعية، ما هي إلا صحوة جديدة للعرب الذين مضى عليهم ردح من الزمان، مغمورين وراء كثبان رمال صحرائهم وإن عودتهم إلى مسرح الأحداث من جديد وهم يحملون نفس المبادئ التي حملها أسلافهم في أوائل عهد الفتوحات

---

(١) علي الوردي. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء الأول نشر الكتبة الحيدرية، قم، الطبعة الثانية، ١٣٧٨-١٣٧٩هـ، ج ١، ص ١٨٨؛ عبد الرحيم عبد الرحيم. الدولة السعودية الأولى ١٧٤٥- ١٨١٨م/ ١١٥٨-١٢٣٣هـ.- ط ٢ ٠- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٥م، ص ٢٠٨.

الإسلامية والتي على أثرها تحطمت إمبراطوريتا الفرس والروم، وهذا ما جعل القوى الكبرى تتجه بعين المراقب الحذر إلى متابعة أحداث تلك الصحوة العربية)) [١].

فقد بدا أن التحالف الذي تم بمصافحة ومعاهدة بين رجل إمارة وسياسة هو الأمير محمد بن سعود الحنفي ورجل علم ودين ودعوة وإصلاح هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهما ينتميان إلى أكبر وأكثر قبائل العرب الأصيلة بمنطقة نجد منذ أيام الجاهلية، تحالفا على إقامة دولة على أسس التوحيد ونصرة ورفع كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله في منطقة نجد [٢]، كما وردت في كلمات محمد بن عبد الوهاب القليلة المقتضبة – كما أوردها مؤرخو الدولة السعودية الأولى– في ذلك اللقاء؛ في يوم غير محدد من أيام عام ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م، حيث كان ذلك العهد بمثابة وثيقة إعلان قيام الدولة السعودية الأولى، وإن كانت قد بدأت الآمال والطموحات تتجه إلى كامل جزيرة العرب وما وراء بلاد جزيرة العرب من بلاد العراق والشام بعد أن أصبحت القوة العسكرية الضاربة للدولة السعودية قادرة على تغيير مجرى الأحداث في منطقة الشرق العربي قاطبة.

وما أن وحدت الدولة السعودية الأولى منطقة نجد إلا واتجهت نحو الخليج العربي والأحساء ثم العراق وعمان؛ حيث شكلت تلك المناطق نقاط تماس للتصادم في المصالح المذهبية والسياسية والاقتصادية بين الدولة السعودية والمملكة الفارسية.

---

(١) محمد بن عبد الله آل زلفة؛ الدولة السعودية الأولى في عهد الإمام سعود الكبير ١٢١٨هـ- ١٢٢٩هـ/ ١٨٠٣- ١٨١٤م العاصمة والحكومة والسكان. كما وردت في تقارير جوزيف روسو القنصل الفرنسي في حلب؛ مجلة الدرعية. الرياض، السنة الأولى، العدد الأول، المحرم ١٤١٩هـ مايو ١٩٩٨م؛ ص ١٥٢- ١٥٣. محمد بن عبد الله آل زلفة. ذاكرة الأمة.- ط ١.- الرياض: شركة مطابع نجد التجارية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ص ٩٦، ٩٧.

(٢) ابن بشر، المصدر السابق، ج ١، ص ٤٢؛ ابن عثيمين، المرجع السابق، ج ١، ص ٨٤- ٨٥.

المبحث الثاني- المملكة الفارسية: قيامها وتوجهاتها:

بدأت إيران الحديثة تأخذ شكلها كدولة وقومية مع قيام الدولة الصفوية التي أسسها إسماعيل الصفوي، والذي يعتقد أنه من أصل تركي لا فارسي منذ عام ١٥٠١م- ١٧٢٢م، فطبعت إيران بالمذهب الشيعي الاثني عشري، وقد سقطت الدولة الصفوية حين غزتها جيوش من أفغانستان عام ١٧٢٢م؛ حيث تمكن زعيم تركي آخر هو نادر شاه -الذي يبدو أنه كان سني المذهب- من طرد الأفغان وأصبح ملكا على إيران في الثلاثينيات (١٧٣٠م) من القرن الثامن عشر الميلادي.

وقد توفرت فرصة تاريخية نادرة وثمينة من خلال حكم الأفغان لإيران من خلال حكم نادر شاه ذاته -الذي لم يعمر طويلا- بحيث كان يمكن لهذا الزعيم أن يقوم بتغيير طبيعة أو مذهب المجتمع الفارسي حيث عمل على التقريب بين السنة والشيعة فترة من حكمه؛ فقد حدثت بعض الفوضى في إيران حين قتل نادر شاه عام ١٧٤٧م؛ حيث تمكن أحد زعماء الأكراد (كريم خان) من الاستيلاء على السلطة وتأسيس سلالة حكم جديدة بإيران هي سلالة زند؛ ولكن بوفاة كريم خان عام ١٧٧٩م دخلت إيران في حرب أهلية بين سلالة الكجريين والزنديين حيث تمكن الكجريون من حسم الصراع لصالحهم عام ١٧٩٤م وحتى عام ١٩٢٥م [(١)]، أي أن السلالة الكجرية قد وطدت الحكم لها في إيران قبل سنة واحدة من بدء سيطرة الدولة السعودية الأولى على سواحل الخليج العربية في عام ١٧٩٥م [(٢)]؛ بيد أنهم لم يعطوا اهتمامهم للخليج العربي إلا في عام ١٧٩٦م.

وقد كان النفوذ الفارسي قد تجدد بالخليج العربي إثر اعتلاء نادر شاه عرش فارس؛ والذي بني قوة بحرية ضخمة محاولة منه أن ينفذ مشروعات عالمية طموحة أسماها

---

(١) الموسوعة العربية العالمية، المرجع السابق، الجزء الثالث، ص ٤٧٢، ٤٧٣.

(٢) جي بي كيلي. الحدود الشرقية لشبه الجزيرة العربية؛ تعريب خيري حماد.- دار مكتبة الحياة، ص ٧٨.

أحمد جودت باشا في تاريخه ((الاستيلاء على الكون)) [(١)] وهو ربما ما يعني إعادة الإمبراطورية الفارسية القديمة، حيث بدأت طموحاته بالأفغان والهند وحاول الانتهاء بأطراف الدولة العثمانية مروراً بالخليج العربي، وقد حاول استعادة بعض من ذلك النفوذ على مسقط والبحرين والعراق، بيد أن صمود الموصل ضد حشود نادر شاه؛ وهزيمته أمام القوات العثمانية؛ قد خيبت آماله في النيل من سيادة العراق: إلى جانب أن صمود القيادة العمانية وعرب الخليج قد أفشلت كل محاولات نادر شاه في فرض نفوذه على هذه المنطقة؛ وأذهبت طموحاته أدراج الرياح.

وحين تم اغتياله في عام ١٧٤٧م/ ١١٦٠هـ؛ ضربت الفوضى الساحة السياسية الفارسية، ولم تكن السلالة التي حكمت فارس بعدئذ وهي سلالة كريم خان زند؛ قد أعطت اهتماما لأية مغامرات بالخليج؛ بقدر ما كانت قد أولت اهتمامها بالبر الفارسي نفسه، أي بما يشبه الانكفاء على الذات وبناء الداخل دون الاهتمام بأية مغامرات خارجية كما فعل نادر شاه الذي وصلت فتوحاته حتى دلهي؛ ولكن أمام المنافسات الداخلية على الحكم فقد حاول كريم زند أن يلهي بها الشعب الفارسي من خلال إعلان عزمه على مواصلة سياسة نادر شاه بغزو العراق وغزو الخليج العربي مستغلا الوضع الحرج للدولة العثمانية بعد هزيمتها أمام روسيا وفرض اتفاقية ١٧٧٤م [(٢)].

ولهذا نتج عن هذه السياسة نتيجتان هامتان الأولى: انهيار التفوق الفارسي على مسقط والبحرين بناء على هذه السياسة الجديدة لكريم خان زند -اغتيل عام ١٧٧٩م- الذي لم يدخل بمواجهات مع عرب الخليج، أما الثانية: فهو عودة نشاط القواسم برأس

(١) أحمد جودت باشا، تاريخ جودت؛ تعريب عبد القادر أفندي الدنا؛ تحقيق عبد اللطيف بن محمد الحميد .- ط ١.- بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص ٤٧٩.

(٢) محمد بن عبد الله آل زلفة. ذاكرة الأمة.- ط ١.- الرياض: شركة مطابع نجد التجارية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ص ١٥٨-١٥٩.

الخيمة والشارقة لتوسيع نفوذهم في لنجة على الشاطئ الفارسي وجزر هرمز ربما كردة فعل طبيعية على سياسات الأسرة الحاكمة السابقة بفارس.

وقد ظل النفوذ الفارسي منحسرا عن الخليج أو بمعنى أكثر دقة متقوقعا داخل البر الفارسي، حتى سقطت سلالة زند وحكمت بلاد فارس سلالة قاجار في أواخر ذلك القرن ١٧٩٦م/ ١٢١١هـ، حيث بدأت بلاد فارس تحاول تجديد اهتمامها في هذه المنطقة [١] في ظل تغييرات جذرية على الساحل العربي للخليج.

المبحث الثالث- العلاقات بين الدولتين:

وكانت الخلافات المذهبية بين الدولة السعودية ذات المذهب الحنبلي السني وبين مملكة فارس ذات المذهب الاثني عشري الشيعي تقف حائلا بين مملكة فارس وتحسين علاقاتها بالدرعية؛ ولا شك أن الدولة السعودية القائمة على المذهب الحنبلي والتي يريد قادة الحركة الإصلاحية العودة بها إلى نقاء الإسلام من كل الشوائب التي علقت به خلال الأجيال ((لا سيما تلك الإضافات التي أدخلها عليه الصوفيون أي متصوفو الإسلام... فشجب المعتقدات الشعبية التي تؤمن بقدرات الأولياء الصالحين كوسطاء وشفعاء بين الإنسان وربه، وندد بتعلق الشيعة بقبور الأئمة)) [٢] كل ذلك قد أضاف عبئا على العلاقات بين الطرفين.

ولعل العلاقات المذهبية الوطيدة التي كانت تربط بين شيعة الأحساء الخاضعين لدولة بني خالد وبين إيران كانت أحد الأسباب التي أدت إلى توتر العلاقات السعودية- الإيرانية، ويختلف المؤرخون حول مدى ارتباط شيعة الأحساء بإيران فيذكر بعضهم أنها

(١) فيصل بن سلمان آل سعود. إيران والسعودية والخليج، سياسة القوة في مرحلة انتقالية ١٩٦٨- ١٩٧١م؛ ترجمة نسرين ناضر.- ط ١.- بيروت: دار النهار للنشر، ٢٠٠٦م، ص ١٧، ١٨.

(٢) سعيد باديب. العلاقات السعودية الإيرانية ١٩٣٢- ١٩٨٢م.- ط ١.- لندن: دار الساقي، ومركز الدراسات الإيرانية العربية، ١٩٩٤، ص ١٠٠. كارين آرمسترونج. الحرب المقدسة، الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم؛ ترجمة سامي الكعكي.- ط ١.- بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٤م، ص ٥٦٦، ٥٦٧.

علاقات مذهبية، بينما حددها مؤلف مخطوط حجازسياحتنامه سي بأنها كانت مجرد علاقات تجارية [1].

ويبدو أن العلاقات السعودية الإيرانية قد بدأت تعاني من وطأة الهجمات التي توجهها الدرعية لمنطقة الأحساء؛ بما فيها مدن وقرى الشيعة منها؛ بداية من عام ١٢٠٤هـ/ ١٧٨٩م حين سقطت حكومة بني خالد وفر دويحس بن عريعر وخاله عبد المحسن بن سرداح نحو المنتفق بالعراق، ولا تسعفنا المصادر التاريخية حول نشاط وتحركات دويحس وخاله عبد المحسن من علاقات أو رسائل استنجاد بالحكومة الإيرانية إذا ما وجدت مثل تلك الاتصالات، كما لا توجد بين أيدينا نصوص تؤكد وجود مثل تلك الاتصالات السياسية بين الحكومة الإيرانية والشيعة بالأحساء –حتى في ظل الوضع القائم بأرض فارس، حيث لم تكن السلالة القاجارية قد تمكنت بعد من توطيد الحكم لها هناك– والتي قد تكون غير موثقة لدى مؤرخي المنطقة.

على أن الحكومة السعودية بالدرعية –فيما يبدو– كانت تدرك أو ربما وصل إليها بعض المعلومات عن سياسة الحكومة الإيرانية تجاهها بعيد ضمها المبدئي لإقليم الأحساء في عام ١٢٠٤هـ/ ١٧٨٩م، حيث كانت الدرعية تحكم الأحساء سواء بقايا دولة بني خالد أو المدن والقرى الشيعية، إذ عينت زيد بن عريعر الذي كان لاجئا عندها مع أخيه سعدون بالدرعية –وذلك بعيد وفاة سعدون– حاكما تابعا لها بالأحساء في ذلك العام.

ويرى الأستاذ الدكتور قورشون حول منع الدرعية للحجاج الفرس ((فكيفما كان الوهابيون ممنوعين على أيدي أشراف مكة المكرمة من الذهاب إلى الحج بدعوى أنهم كفرة كذلك كان الوهابيون أيضا يمنعون الشيعة القادمين من إيران وكذلك الشيعة المقيمين في أنحاء بغداد من العبور عبر أراضيهم والذهاب إلى الحج)) وفي حقيقة الأمر

(١) عبد الفتاح أبوعليه، المرجع السابق، ص ٧٤. ابن عثيمين، تاريخ المملكة (مرجع سابق)، ج ١، ص ١٦٤، ١٦٥.

أن الشريف غالب إلى جانب سليمان باشا والي بغداد العثماني هم الذين فرضوا ضرائب على الحجاج الإيرانيين؛ وقد فرضها سليمان باشا على حجاج مملكة فارس والقادمين لزيارة كربلاء مما جعل كريم زند يغزو البصرة ويحتلها لثلاث سنوات [١]. كما يرى مؤلف مخطوط حجازسياحتنامه سي أنه في العام التالي ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م بدت العلاقات بين الطرفين الدرعية وإيران متوترة بالشكل الذي جعل الدرعية تقرر منع القوافل الإيرانية للحجاج أن تمر عبر أراضيها؛ كما يرى أن هذه الخطوة من قبل الدرعية قد أحدثت ردا انتقاميا من إيران ((وقد أثار هذا المنع رد فعل عميق بإيران، ولكنها لم تستطع أن تسوق الجيش على نجد بسبب عجزها وصعوبة الطرق المؤدية إليها)) [٢].

وفي حقيقة الأمر فإنها –على الأرجح– رواية مخالفة للحقيقة التاريخية تماما؛ وهى تفسير شخصي خاطئ للأحداث من قبل هؤلاء المؤرخين الأتراك أكثر منه خبرا تاريخيا أو حقيقة تاريخية؛ فمن المعروف أن الشريف غالب قد طلب من الدرعية أن ترسل إليه عالما يناظر علماء مكة وقد أرسل الشيخ عبد العزيز الحصين إلى هناك، ولكنه فوجئ بعد مقابلة الشريف رفض العلماء إجراء أية مناظرة معه عام ١٢٠٤هـ/ ١٧٨٩، فاعتبر الشريف غالب هذا مبررا كافيا لأصحاب النفوذ بإستانبول ولرعاياه على حد سواء لإعلان حرب عسكرية ضد الدرعية، وتمسك برفض السماح لأهالي نجد بالحج، وإلى جانب ذلك فقد أعلن قرارا إضافيا؛ وهو منع كل الحجاج من رعايا الدول الإسلامية المارين بالأراضي السعودية من الدخول للأراضي المقدسة؛ وذلك لإحداث أضرار مادية جمة بالدولة السعودية التي كانت تلك القوافل تمر بأراضيها منذ عام ١١٨٣هـ/ ١٧٦٩م؛ وقد علل الشريف قراره —حسب رواية موسيل– بقوله "أن أتباع عبد العزيز بن

(١) قورشون. العثمانيون وآل سعود في الأرشيف العثمانية، ١٧٤٥– ١٩١٤م.– ط ١.– بيروت: الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٥م– ١٤١٥هـ، ص ٤٩ وص ٥٨– ٥٩؛ أحمد زيني دحلان؛ تاريخ أشراف الحجاز ١٨٤٠– ١٨٨٣ خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام؛ تحقيق وتحليل محمد أمين توفيق.– ط ١.– بيروت: دار الساقي، ١٩٩٣م، ص ١٧.

(٢) عبد الفتاح أبوعليه، المرجع نفسه، ص ٤٧.

محمد ليسوا على الإسلام الصحيح؛ ويجب حماية الحجاج من الاختلاط بهم" ولعل الشريف غالب أيضا قد منع الحج من خلال الأراضي السعودية إلى الديار المقدسة كي يثير الدولة العثمانية ضد الدرعية، حيث أرسل إلى إستانبول يستغيث بها لتهديد الدرعية لطريق الحج [1].

هذا فضلا عن أنه في عام ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م؛ لم تكن السلالة القاجارية قد وطدت الحكم لها في أرض فارس نفسها كما ذكرنا أعلاه.

ويرى بوركهارت ((أن الحجاج الفرس الذين يذهبون إلى مكة عن طريق بغداد والدرعية يشكون عند عودتهم من المضايقات العظيمة التي يلاقونها من الوهابيين؛ إذ كانوا مجبرين على أن يدفعوا إتاوة كبيرة لزعيمهم مقابل مرورهم بأراضيهم)) [2].

مع أن بوركهارت يناقض نفسه حين يؤكد أن ((الوهابيين لم يعلنوا الحرب على الحكومتين القريبتين منهم؛ حكومة بغداد في الشمال، وحكومة الحجاز في الجنوب، ولم يعتدوا على حقوقهما. فقد عبرت قوافل الحجاج من دمشق وبغداد أراضيهم دون أن يمسوها بسوء)) [3]؛ ومن هذا يتبين ضعف الرواية الأولى لبوركهارت ذاته فقد تكون متأثرة بالدعاية المضادة للدرعية.

وهو ما يعني أن العلاقات قد تردت إلى درجة ظنت الحكومة الإيرانية (الفارسية) أن الحكومة السعودية هي صاحبة قرار المنع، ولم توضح المصادر التي بين أيدينا ما هو موقف تلك الحكومة حين علمت أن المسئولية في هذا المنع تقع على عاتق الشريف غالب، كما يبدو أن هناك خلطا لدى مؤلف حجازسياحتنامه سي بين موقف ورغبة الحكومة الإيرانية بإعلان الحرب ضد الدرعية في عام ١٢٠٥هـ/ م وبين موقفها في عام ١٢١٦هـ حين قام الجيش السعودي بغزو كربلاء من جهة؛ وتوطيدها الحكم للحكومة

(١) ألويس موسيل، المرجع السابق، ص ٦٧، ص ٧٦؛ انظر أيضا: علي الوردي، المرجع السابق، ج ١، ص ١٨٤.

(٢) بوركهارت. مواد في تاريخ الوهابيين، ص ٨٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٨٠.

الإيرانية في بلاد فارس حينئذ، والتي لولا عجزها عن تنفيذ تلك السياسة العسكرية من خلال قوة بحرية وعدم سماح باشا بغداد بمرور جيشها البري مع الأراضي العراقية لكانت قد أعلنت الحرب ضد الدرعية.

وكانت الحكومة الإيرانية (الفارسية) قد نقلت إلى الباب العالي شكاوى حجاجها ضد المضايقات السعودية؛ مما جعل السلطان العثماني يأمر باشا بغداد بالعمل ضد الدرعية [1]، ولعل تلك المضايقات تنحصر فيما يرويه مؤلف مجهول في كتاب (لمع الشهاب ..) التي ذكر فيها أنه جرت عادة الإمام عبد العزيز أن ((جميع حاج العقيلي والعجم المارين بهم يضيفونه ثلاثة أيام بلياليها، ولا بد أن يحكموا على الحجاج بالغداء والعشاء، ويرون ذلك واجبا... وكانوا يأمرون كل أمير من أمراء الحاج أن لا يسير بركبه من أي ناحية أتى، إلا ويمر بالدرعية ذهابا وإيابا))، ثم يروي أن قافلة للحجاج جاءت من الكويت، وفيها خلق كثير من العجم، ولم يمروا بالدرعية، فأجبرهم على العودة من الزلفي إلى الدرعية، -وبالرغم من أن استخدام كلمة العودة غير صحيح فالزلفي إلى الشمال من الدرعية؛ وإنما الأصح أنه أجبرهم على الاتجاه إلى الدرعية بدلا من المضي نحو مكة- ويعلق المؤلف بأن ذلك لتعريف الناس بمذهبهم وترغيبهم به بما يرونه من كرمهم، ثم يضيف المؤلف بأن الدرعية قد ((منعوا الأعراب عن أخذ الأخوة [الخاوة] من الحاج)).

وكان عرب البادية يأخذون ضريبة على كل حاج تتراوح ما بين أربعة وستة من الذهب إلى خمسة عشر على الفرد الواحد ((ولما استقر الحكم لآل سعود، منعوا جميع العرب الذين تحت سلطتهم... من التعرض للحاج))، وأجروا لهم من بيت المال عطايا

(١) ج. ج. لوريمر. دليل الخليج القسم التاريخي، طبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، ج ٣، ص ١٥٨١.

بديلة لما يأخذونه من الحجاج. ((فعلى هذا كان الحاج المعاهد لهم يمر بجميع جزيرة العرب، ولم يعترضه أحد)) [1].

وهو ما يعني أن تلك المضايقات ناتجة عن خطوة متقدمة من الدرعية هدفها الكرم والضيافة العربية من جانب، والتعريف والإعلام بمبادئ الحركة الإصلاحية من جانب آخر، وهو ما جعل الحكومة الإيرانية تخشى من تأثيرات معاكسة من مثل هذه السياسة على رعاياها؛ فقدمت شكاواها للدولة العثمانية ضد الدرعية؛ كما أن هذا النص يوحي بأن هناك معاهدة أو اتفاقية موقعة بين الدرعية ومملكة فارس جعلت من وضعية الحجاج الفرس تأخذ صفة الحاج المعاهد؛ مما يؤكد أن المضايقات التي اشتكت منها مملكة فارس للسلطان العثماني إنما هي تندرج من خشيتها من تأثير الدرعية المذهبي على حجاجها العائدين متأثرين بمنهجها التصحيحي والضيافة العربية، مما قد يؤدي إلى تغييرات مستقبلية في بلاد فارس أو ثورة تصحيحية ضد توجهات تلك الحكومة الفارسية المذهبية.

ولكن في نهاية المطاف –فيما يتعلق بمنع حجاج إيران من الحج عام ١٢٠٥هـ– سواء كان قد اتضح للسلطات الإيرانية أن القرار كان قرارا شريفياً وليس سعوديا في عام ١٢٠٥هـ أم لا؛ فإن المصادر تصمت فترة من الزمن قد تقارب من سبع سنوات عن قوافل الحج الإيرانية بحيث لم تتحدث عن أي انقطاع في مسألة الحج لحجاج الفرس مما يعني أن القوافل قد تم التفاهم حول مرورها للديار المقدسة وقد عرف من هو الذي اتخذ القرار؛ لتظهر المشكلة فجأة على السطح في الهجوم الذي تعرضت له قافلة أمن سعودية تحرس قافلة تجارية سعودية إلى جانب قافلة حج إيراني وهي في طريق عودتها من الديار المقدسة؛ مما يعني أن تلك القوافل واصلت الحج تحت حماية سعودية؛ حيث هاجمتها في عام ١٢١٤هـ بين الحلة والنجف بادية تابعة لقبيلة الخزاعل الشيعية العراقية لتبيد القافلة،

(١) مؤلف مجهول، المرجع السابق، ص ٥١– ٥٢.

وتسلب ما معهم من تجارة وأموال بعيد إقرار صلح بين الدرعية وباشا بغداد عام ١٢١٣هـ إثر انسحاب على الكخيا من الأحساء بعد حملته الشهيرة على الأحساء.

وليظهر للسطح فجأة أن هناك اتفاقية موقعة بين السلطات السعودية والإيرانية على حماية قوافل الحج الإيرانية بين العراق والحجاز من قبل كتائب أمنية سعودية تؤمن مرور تلك القوافل، مما يعنى أن هناك اتصالات شاركت فيها الدولة العثمانية من خلال واليها ببغداد والشريف غالب الذي قد يكون بموجب هذه الاتفاقية قد استثنى حجاج فارس من قرار المنع الذي شمل الحجاج القادمين عبر الأراضي السعودية حسب رواية موسيل؛ وذلك فيما بين عامي ١٢٠٥هـ و١٢١٣هـ، ولكنه من غير الواضح إذا ما كانت تلك الاتفاقية قد ألحقت باتفاقية علي الكخيا مع سعود الكبير التي وقع عليها سليمان باشا في بغداد مع مندوب سعودي أرسل لذلك الغرض أم أنها قد وقعت بعد ذلك؛ وتؤكد الوثائق العثمانية أن هناك اتصالات دبلوماسية بين والي بغداد من جهة وبين الإمام عبد العزيز بن محمد والشريف غالب من جهة أخرى بهذا الخصوص؛ ففي تقرير في ٤ صفر ١٢١٣هـ أرسله سليمان باشا والي بغداد للسلطان العثماني بين فيه سليمان باشا أنه يبذل محاولات لإصلاح ذات البين بين الإمام والشريف وأنه كلف أمير الحج العراقي ووالي جدة بهذه الجهود وأنه حتى ذلك التاريخ لم تنجح جهوده لإصرار كل من الطرفين على موقفهما [1].

ولكن المهم أن الدولة السعودية الأولى قد أولت هذه الاتفاقية أعلى جانب من الأهمية بحيث كان ولي العهد السعودي سعود بن عبد العزيز نفسه يقود كتائب الحماية لهذه القوافل بين العراق والحجاز في أول سنتين من توقيعها ١٢١٤- ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠- ١٨٠١م -حسب موسيل- وأن الهجوم من قبل قبيلة الخزاعل ربما كان نوعا

(١) وثيقة رقم ٣٨٤١ في ٤ صفر ١٢١٣هـ من سليمان باشا والي بغداد إلى السلطان العثماني.- دارة الملك عبد العزيز، برقم ٣/ ١- ٤٨.

من الاحتجاج على مثل هذا الاتفاق الذي قد يكون ألحق ضررا بمصالح القبيلة من خلال تقليل الأتاوة التي يقدمها الإيرانيون لها في أثناء مرورهم بالنجف نحو الديار المقدسة [1].

ولعل من المدهش حقا أن يكون رد الفعل السعودي من قبيلة الخزاعل التي أحرجت الدولة السعودية بهجومها على القافلة السعودية -الإيرانية بما يعنيه من إخلال الدولة السعودية بواجباتها تجاه حماية تلك القوافل وفق الاتفاقية لم يكن موجها ضد قبيلة الخزاعل وباشا بغداد فحسب، بل أن الحكومة الإيرانية قد اعتبرت العمل برمته موجهاً إليها بالدرجة الأولى.

وقد ظلت هذه الوثائق والاتفاقات إما بعيدة عن علم المؤرخين النجديين أو أن تلك الوثائق قد أحرقت بالدرعية على يد إبراهيم باشا في عام ١٢٣٣- ١٢٣٤هـ/ ١٨١٨- ١٨١٩م أو صودرت لدراستها من قبل جهات ذات علاقة بالغزو الأجنبي الذي تعرضت له البلاد السعودية؛ وكانت مصاحبة لجيش إبراهيم باشا من الأوربيين على غرار ما كان مصاحبا لجيش نابليون الغازي للقاهرة من بعثات علمية؛ وتعطى اهتمامها لمثل هذه الوثائق، ويبدو أن تلك الجهات كانت تستظل بجيش التحالف الذي يقوده إبراهيم باشا، وقد أشار سادلير إلى شيء من هذا حين قال ((وعندما تمكن إبراهيم من وضع يده على الدرعية، دخل القلعة، ودخل بيت عبد الله مع بعض خدمه الموثوقين، ولم يسمح لأي فرد من عائلته أن يحمل شيئا يمكن نقله؛ إذ كان يتوقع.. أن يجد بعض النفائس، ...، ويعتقد أن مجموعة هائلة من الكتب قد كدست، وأرسلت إلى المدينة المنورة ابتهاجا بالنصر ليفحصها المختصون في العلوم الدينية قبل السماح

(١) انظر: ألويس موسيل، المرجع السابق، ص ٧٧.

بقراءتها)) [1]؛ وهنا نرى أن الأمر لا يتعلق بالكتب الدينية فحسب؛ بل يتضمن بالدرجة الأولى المكاتبات والمعاهدات السياسية للدولة السعودية مع خصومها وأتباعها.

وقد تبينت الخطوط العامة لهذه الاتفاقية –السعودية الفارسية حول حماية قوافل الحج– في حادثة اعتداء قبيلة الخزاعل على قافلة للحجاج الإيرانيين يحرسها أفراد كتيبة سعودية، وقد حصل ذلك الاعتداء على القافلة الإيرانية وحراسها السعوديين فيما بين مدينتي الحلة والنجف العراقيتين؛ حيث نهبت القافلة وقتل الكثير من أفرادها السعوديين تجارا وجنودا ثم شكلت القبيلة عصابات للسلب والنهب في تلك المنطقة [2]، وهو ما يعني أن تلك الاتفاقية قد حتمت على أفراد الكتائب السعودية أن تستلم مسئولية أمن القوافل الإيرانية للحج من أطراف الحدود العراقية الإيرانية، ولعل هذا ما أوغر صدور قبيلة الخزاعل بالنجف فقاموا بالاعتداء على أفراد الكتيبة والحجاج الذين يحرسونهم.

وقد تطورت هذه القضية بين الحكومة السعودية بالدرعية وبين حكومة باشا بغداد العثمانية إلى الدرجة التي أدت إلى تأزم العلاقات السعودية –العراقية (العثمانية) من جهة، والعلاقات السعودية الإيرانية من جهة أخرى، فحين رفضت حكومة بغداد دفع ديات القتلى من تلك القافلة والتعويضات المطلوبة من نهب تلك القافلة التجارية المرافقة للحجاج الإيرانيين وتجار نجد المرافقين لها –وفق الاتفاقية الموقعة ببغداد بين الدرعية وبغداد إثر الصلح الذي أعقب حرب ١٢١٣هـ– فقد أدى ذلك إلى أن تقوم الدرعية بضرب مدينة كربلاء في عام ١٢١٦هـ/ ١٨٠١م تلك الضربة الموجعة لإيران بقدر ما هي موجعة لسلطات بغداد ومحرجة للحكومة العثمانية، فقد أسر الجيش السعودي حوالي مئتي إيراني من الزوار الإيرانيين في كربلاء.

---

(١) ج. فورستر سادلير. رحلة عبر الجزيرة العربية خلال عام ١٨١٩م؛ تحقيق ونشر سعود بن غانم الجمران العجمي؛ ترجمة أنس الرفاعي، جمعت من سجلات حكومة بومباي بواسطة: ب. ريان راسك مساعد سكرتير الحكومة.– ط ٢.– الكويت ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص ١٥٤.

(٢) ج. ج. لوريمر؛ المرجع السابق، ج ٣، ص ١٥٨٣.

ليس هذا فحسب؛ بل إن سليمان باشا والي العراق قد خشي بعيد الهجوم السعودي على كربلاء -كما يذكر هارفرد بريدجز- من ((المنظار الذي سينظر من خلاله إلى الأمر نفسه ملك بلاد فارس الذي سيطالب -بدون شك- بتعويضات كبيرة عن بعض رعاياه الذين قتلوا أو أسروا؛ وعما نهب من القرابين الثمينة التي قدمها للأضرحة عدد من ملوك الفرس الذين سبقوه، وعن الخسائر المادية التي تعرض لها التجار الفرس)) ولهذا فلم يضع سليمان باشا وقتا لتسكين غضب كلا البلاطين العثماني والفارسي؛ ولهذا الغرض تم إرسال الهدايا إلى الباب العالي وبلاد فارس [١].

وقد أدى هذا الحدث الكبير إلى أن تنظر الحكومة الفارسية إلى الحكومة السعودية كنظرة عدائية، خاصة وأن معظم الأسرى الذين أسروا مع الجيش السعودي المنسحب من كربلاء كانوا من الإيرانيين، فقامت الحكومة الفارسية بتقديم معونة اكتتب بها الشعب الإيراني لافتداء الأسرى، حيث تولى المقيم البريطاني سير هـ. ج. بريدجس التوسط في إطلاق سراحهم فأطلق سراح ٢٠٠ رجل نقلوا إلى إيران [٢].

ولعلنا نقف متسائلين بدهشة عن موقف المؤرخين النجديين من مثل هذه الأحداث ونعني بها تحديدا (الصلح الموقع مع بغداد والاتفاقية الموقعة مع فارس حول حماية الحجاج إلى جانب الأسرى الإيرانيين في غزوة كربلاء أين سجنوا؟ وكم مكثوا ؟ وكيف أعيدوا؟) والوفد البريطاني الذي جاء للتوسط في مسألة افتداء الأسرى الإيرانيين؟؛ فهم -أي هؤلاء المؤرخون- لم يشيروا إليها لا من قريب ولا من بعيد وكأن تلك الأمور من المحاذير التي لا يسمح بالحديث عنها أو على الأقل لم تصل إليهم وهو ما يثير أكبر علامات الدهشة والاستغراب.

---

(١) هارفرد جونز بريدجز. السير، المصدر السابق؛ ص ٩٨.

(٢) ج. ج. لوريمر، المرجع السابق، ج ٣، ص ١٥٨٤. ابن عثيمين. محاضرات وتعليمات على تاريخ المملكة العربية السعودية، (مرجع سابق)، ص ١٦١.

ويبدو أن تمكن الدرعية من ضم الأحساء بشكل نهائي عام ١٢١٠هـ/ ١٧٩٥م، والإجراءات التي اتخذتها الدرعية ضد شخصيات شيعية كانت دائبة التحريض بنبذ الولاء للدرعية ومنها تهجيرهم نحو العراق [١]، جعلت الحكومة الفارسية تقف موقفا عدائيا من الدرعية فكانت حملة حاكم مسقط الفاشلة الأولى ضد البحرين كانت بدعم وتعاون من الفرس، كما أنهم بعد ضربة الدرعية لمدينة كربلاء خاصة أبدت الحكومة الفارسية حماسا للتعاون مع حاكم مسقط من جديد ضد الدرعية، وإن لم يتمكنوا من تقديم تلك المساعدات فعلياً [٢].

وغضب شاه فارس على هذا العمل السعودي الكبير بالمقاييس العسكرية؛ والذي تعرضت له كربلاء المدينة ذات الأهمية المذهبية لدى جمهور الشيعة؛ فضلا عن مغازيه ومعانيه المذهبية، حيث أراد التدخل العسكري وطلب من والي بغداد السماح لقواته بالمرور عبر العراق والزحف على السعوديين في الأحساء، وقد قامت مملكة فارس بضغوط كبيرة على سليمان باشا والي بغداد العثماني بهذا الشأن بسبب أهمية كربلاء للمذهب الشيعي، ولأن كثيرا من الضحايا في تلك المدينة كانوا من الرعايا الفرس الزوار أو المتخلفين والمقيمين من الإيرانيين بكربلاء، ونتيجة للضغوط الشديدة على سليمان باشا من قبل استانبول من أجل القيام بحملة يقودها بنفسه أو نائبه على الكخيا فقد اعتلت صحته بسبب تلك الضغوط السياسية من قبل إستانبول وبريطانيا وفارس مما أدى إلى وفاة سليمان باشا والي العراق في أواخر ذلك العام [٣].

---

(١) انظر: ابن بشر، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٥، ٢٠٦، ص ٢١٦، ٢١٧.

(٢) صادق حسن عبدواني وجمال زكريا قاسم، علاقات الدولة السعودية الأولى مع: دول شرق الجزيرة العربية عمان ساحل عمان قطر البحرين خلال ١٧٥٠- ١٨٢٠م.- الفجالة: دار الجيل للطباعة، ص ٧٦؛ ابن عثيمين. تاريخ المملكة (مرجع سابق)، ج ١، ص ١٦٥.

(٣) هارفرد جونز بريدجز. السير، المصدر السابق؛ ص ٩٨. الموسوعة العربية العالمية، المرجع السابق، ج ١٠، ص ٤٧٤؛ ج. ج. لوريمر، المرجع السابق، ج ٣، ص ١٥٨٥.

وفي الوقت الذي تقاطعت مصالح الدولة السعودية بمملكة فارس بعد غزو كربلاء؛ فقد كان من اللافت للانتباه حدث يحمل بعض الدلالات؛ ففي عام ١٨٠٣م/ ١٢١٨هـ استشهد الإمام عبد العزيز بن محمد على يد درويش عراقي؛ وحيث كان سعود الكبير ابنه وخليفته متأكدا من أن قتل والده كان بمؤامرة وبتدبير وتأييد من والي العراق علي باشا؛ فقد قام سعود الكبير بغزو جنوب العراق فغزا قبيلة الظفير والبصرة والدريهيمية حصن الزبير وأسر أحد وجهاء المنتفق كما تم هدم بعض المشاهد على قبور طلحة والحسن البصري، وقد شحنت الأجواء بين الدرعية وبغداد بنذر الحرب وبالرغم من أوامر السلطان العثماني الملحة على والي بغداد بحرب الدولة السعودية؛ إلا أن علي باشا صاحب التجربة المريرة بحرب عام ١٢١٣هـ لم يكن قادرا ولا راغبا بمثل هذه الحرب، لذا فقد قام بتحركات مظهرية للجيش دون أن يصطدم بالجيش السعودي؛ بيد أنه قام بإجراءات لمضايقة بعض الشخصيات العراقية الموالية للدرعية وكان على رأسهم محمد بك الشاوي وأخيه عبد العزيز اللذين كانا من أنصار الدعوة الإصلاحية ويواليان الدرعية فقتلهما؛ فثارت قبيلتهما ثورة كبيرة ضد علي باشا؛ وبالرغم من تضاد المصالح بين الموالين للدولة السعودية كعشيرة العبيد وبين الموالين لإيران والمتحالفين معها مثل عبد الرحمن بابان؛ ولكن مما يثير الدهشة أن عشيرة العبيد حلفاء السعوديين تحالفوا مع عبد الرحمن بابان حليف إيران؛ وقد توترت العلاقات بين إيران والعراق؛ ثم تدخلت إيران لصالح الثورة المشتركة وتصادم الجيشان العراقي والإيراني هزم في هذا الصدام الجيش العراقي أمام الجيش الإيراني هزيمة كبيرة [1] ولعل اللافت أن هذا أول عمل يتحالف فيه حلفاء القطبين المتعاديين في العراق ضد حكومة العراق المركزية حيث صب في مصلحة إيران؛ ولكنه لا يعني أبدأ أن هناك أي نوع من التنسيق بين الدولة السعودية ومملكة فارس.

(١) د. علي الوردي، المرجع السابق، ص ٢٠٤، ٢٠٥.

ولقد ظلت الحكومة الفارسية تتعامل مع المشكلة لوقت طويل ربما لأن الضغط عليها من علماء الشيعة كان كبيرا أو ربما لأنها تريد استغلال الحادثة لمكاسب سياسية اعتادت عليها الحكومات الفارسية منذ عهد الصفويين في العراق بين فترة زمنية وأخرى؛ وبعيد وفاة سليمان باشا وتولى على باشا باشوية بغداد خلفا له ظلت الحكومة الإيرانية تشكل تهديدا للعراق؛ ففي الوقت الذي كان علي باشا وسليمان باشا الجزار والي الشام الجديد يعدون قواتهم لضرب الدرعية كتب علي باشا تقريرا للسلطان العثماني في ١٩ رجب ١٢١٨هـ يبلغه فيه أن بغداد صعبة المنال سواء كان بالنسبة لإيران أو الدرعية، كما تؤكد وثيقة أخرى أن التهديد الفارسي قد استمر حتى عام ١٢١٩هـ حيث تحدث علي باشا في تقرير للسلطان العثماني عن "دسائس "شاه إيران" ومثابرته" على ذلك ولكن القائمين في العراق يرصدون تحركاته؛ وأن ((قائدا إيرانيا يدعي إبراهيم خان قد تهيأ على رأس عشرين ألف فارس للتوجه نحو الوهابيين، وأنه قد وصل إلى حويزة التي تبعد ثماني عشرة ساعة عن البصرة؛ وأنه على وشك الوصول إلى البصرة وعبور شط العرب... وأن شاه إيران قد حرر رسائل إلى متسلم البصرة بهذا الشأن)) وتؤكد الوثيقة أن وصول الإيرانيين برا أمر محال؛ وأنه في الوقت الذي يبحث عن موقف شريف مكة ويجمع معلومات حيال هذا الأمر، فإنه قد شدد على ضرورة أخذ كافة الاحتياطات العسكرية اللازمة وأنه قد أرسل تعزيزات إلى هناك؛ ويستمر شاه إيران في تهديداته حتى أن علي باشا أرسل تقريرا في عام ١٢٢١هـ تقريبا يؤكد فيه بعد عرضه لأمور خاصة بالدرعية أن شاه إيران تحرك نحو بغداد؛ وقد علق السلطان على تقرير والي بغداد بأن ((محررات والي بغداد مشحونة بالمبالغات ولا تتآلف مع بعضها وحوادثه عن إيران عجيبة يجب أن يتجنب الحالات الموجبة للنزاع)) [1].

---

(١) وثيقة عثمانية رقم ٦٧٢٧ في ٩ صفر ١٢١٩هـ من علي باشا والي بغداد إلى السلطان العثماني؛ دارة الملك عبد العزيز؛ وثيقة رقم ٣/ ١/ ٥٤؛ ووثيقة عثمانية رقم ٣٧٨٢ من والي بغداد إلى السلطان العثماني بتاريخ ١٩ رجب ١٢١٨هـ؛ دارة

وقد قام المقيم البريطاني ببغداد باسم شركة الهند الشرقية المتعاطف مع العراق والمعادى للدرعية وهو السيد هارفورد جونز "سير هارفارد جونز بريدجز" فيما بعد، بجهود كبيرة لدى حكومته لتقديم معونة مالية ضخمة باسم شركة الهند لصالح الأهالي بمدينة كربلاء إثر هذه الغزوة، كما قام بجهود كبيرة للتنسيق مع السعوديين لإطلاق الأسرى مستعينا بما لديه من معونة وما قدمته حكومة فارس من خلال اكتتاب عام لفداء الأسرى [(١)].

وقد توقفت قوافل الحج الفارسية عام ١٢١٦هـ/ ١٨٠١م حتى عام ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م حين امتنعوا من الحج ربما بسبب ظروف الجبهة العسكرية في الحجاز، حيث يؤكد بوركهارت أن قوافل الحج منهم قد توقفت بقوله: ((وقد رد الحجاج الفارسيون أيضا منذ سنة ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م كما ردت قافلة حجاج اليمن، ولهذا فإنه لم يصل إلى مكة من قوافل الحج المنتظمة بعد سنة ١٨٠٣م/ ١٢١٨هـ إلا عدد قليل جدا، وقد أوقف المحمل في جدة ...)) [(٢)] ولكنه من المحتمل أيضا أن الحكومة الإيرانية قد أوقفت قوافل الحج من جانب واحد كرد فعل سياسي على حادثة كربلاء ١٢١٦هـ، وهو ما يتناقض مع ما يورده صاحب مخطوط حجازسياحتنامه سي الذي يجعل المنع من قبل الدولة السعودية بدلا من الشريف غالب أو الحكومة الفارسية فيقول: ((في العام التالي ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م بدت العلاقات بين الطرفين الدرعية وإيران متوترة بالشكل الذي جعل الدرعية تقرر منع القوافل الإيرانية للحجاج أن تمر عبر أراضيها)) ويرى مؤلف مخطوط حجازسياحتنامه سي أن هذه الخطوة من قبل الدرعية كانت قد جلبت ردا انتقاميا من إيران ((وقد أثار هذا المنع رد فعل عميق بإيران، ولكنها لم تستطع أن تسوق

الملك عبد العزيز؛ المركز الوطني للوثائق والمخطوطات، ترقيم ٣/ ١- ٦٥٠؛ الوثائق التركية؛ وثيقة رقم ٣٧٩٢ من رئيس الكتاب إلى السلطان العثماني، دارة الملك عبد العزيز، مكتبة الوثائق، ترقيم ١/ ٢- ٤٧.

(١) ج. ج. لوريمر، المرجع نفسه، ج ٣، ص ١٥٨٥.

(٢) بوركهارت المرجع نفسه، ص ٦٧، ٦٨.

الجيش على نجد بسبب عجزها وصعوبة الطرق المؤدية إليها)) [1] وهذا يؤكد أن سليمان باشا صاحب المخطوطة وقع بشيء من الخلط بين الحدثين.

ويوضح الصورة الإمام عبد الله بن سعود الكبير في رسائله لطوسون باشا ومحمد علي باشا باتهام مباشر لغالب أنه وراء كل عملية المنع التي حصلت لمنع حجاج الشام من الوصول إلى بيت الله الحرام؛ فيقول برسالته لطوسون عام ١٢٣١هـ معللا المسألة برمتها بخدعة من قبل الشريف ((ولذلك فقد حسد حضرة الشريف... ورماه بسهام الافتراء... وتشبث المشار إليه بأذيال الخديعة والحيلة: وادعي بأن الحجاج الواردين من قبل الدولة العلية، لم يكن لهم غرض إلا السعي في الفساد، وقتل النفوس في الحرمين الشريفين، وخدع... والدي وأغراه بزخرف الأقوال لمنع الحجاج وإرجاعهم وحجز عنده العرائض التي قدمها... والدي إلى الأعتاب العلية، عن هذا الخصوص بحجة أنه سيرسلها بواسطته، وكتب عرائض أخرى مزورة على لسان والدي مخالفة للعرائض الأولى، وقدمها إلى الباب العالي كما تحقق ذلك وتبين فيما بعد وأنه وإن كان رأى ثمرة سوء أفعاله تصديقا لقوله تعالى "**وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّء إِلَّا بِأَهْلِهِ**" ولكننا لم نتدخل في شئون البنادر الموجودة تحت يده ولم نجز الفساد الذي سعى فيه بين رعايا الدولة العثمانية وإنما على إرجاعه حجاج المسلمين برأيه الخاص مجاراة له ومن الواضح أننا لا نجرؤ على منع حجاج المسلمين أصلا؛ لكونهم مستظلين بحمايتكم الشاهانية ولما كان حجاج المسلمين عامة لكافة البلاد والعباد وروافض الأعاجم عامة فالمشهور عنا أننا لا نتدخل ولا نتعرض بأي وجه كان لمرور حجاج روافض الأعاجم وعبورهم في كل عام من حوالينا وعلى العموم، فإن ما نسب إلى [والدي] من أمور الطغيان والخوارج كلها ناشئ عن خدعة الشريف المشار إليه ودسيسته...)) [2].

---

(١) عبد الفتاح أبوعليه، المرجع السابق، ص ٤٧.

(٢) وثيقة رقم ١٢٢، دفتر١٦ بحر برا؛ دار الوثائق القومية– القاهرة. عريضة عربية العبارة من عبد الله بن سعود إلى الدولة العلية؛ سادلير، المصدر السابق، ص ٢٥٦– ٢٥٩.

وقد حدثت مناوشات متعددة بين الطرفين داخل أراضي العراق فقد ذكر الدكتور علي الوردي أنه في عام ١٨١٠م والقتال حول بغداد بين حالت أفندي وسليمان الصغير؛ فقد هجم الجيش السعودي (قبيلة عنزة) التابعة للدولة السعودية على أطراف العراق ما بين النجف وكربلاء وكانت تلك الغزوة متزامنة مع زيارة الشيعة للاماكن الشيعية المقدسة في منتصف شعبان فنهب الزوار العجم (زوار الحسين) وقتل منهم حوالي مئة وخمسين أو أقل" [(١)]؛ ومما لا شك فيه أن هذه الهجمات العسكرية على رعايا مملكة فارس الزائرين للعراق ستشحن العلاقات السعودية- الفارسية بمزيد من الاحتقان والتوتر.

المبحث الرابع- خطط الطرفين ونذر الحرب بينهما:

أ. موقف الدولة السعودية من المملكة الفارسية:

كانت الأوضاع تزداد تعقيدا مع مرور الوقت؛ فإستراتيجية الدولة السعودية بدت واضحة أمام العالم منذ غزوة كربلاء عام ١٢١٦هـ/ ١٨٠١م؛ وخلال السنوات العشر اللاحقة بدا نشاط العسكرية السعودية يرعب القوى الإقليمية في العراق والشام وفارس وكذلك القوى الدولية كإستانبول ولندن وباريس؛ وبين عامي ١٢٢٣هـ و١٢٢٥هـ/ ١٨٠٨- ١٨١٠م هددت الجيوش السعودية مدينتي بغداد ودمشق؛ مما جعل نشاط القناصل الأجانب يزداد تجاه إرسال تقارير التحذيرات لحكوماتهم الأوربية؛ من الخطر العربي الجديد الذي برز على الساحة الدولية.

ويبدو أن الدولة السعودية كانت تسعى إلى تصحيح المفاهيم الإسلامية لدى الحكومة والشعب الإيراني الذي يتبع المذهب الإمامي الاثني عشري، ومن المؤكد أن المعسكرات التي كانت تقام قرب الدرعية لقوافل الحجاج الفرس من ضيافة وتوعية هدفها تصحيح العقيدة لدى أعضاء تلك القوافل، وهناك من يذكر أن الإمام سعود الكبير قد

---

(١) علي الوردي، المرجع السابق، ج ١، ص ٢١٥، ٢١٦.

قام بجهد كبير في هذا الاتجاه هدفه تبيان المبادئ التي تقوم عليها الحركة الإصلاحية إلى جانب محاولة دبلوماسية لإقناع شاه فارس فتح علي شاه بإجراء إصلاح ديني في بلاده [١].

وكما رأى روسو القنصل الفرنسي بحلب في تقريره المذكور أعلاه لحكومته في ٢٤ نوفمبر عام ١٨٠٨م/ ١٢٢٣هـ: ((أن دعوة ابن عبد الوهاب وتحالفه مع أمير الدرعية، ما هي إلا صحوة جديدة للعرب الذين مضى عليهم ردح من الزمان مغمورين وراء كثبان صحرائهم، وإن عودتهم إلى مسرح الأحداث من جديد، وهم يحملون نفس المبادئ التي حملها أسلافهم في أوائل عهد الفتوحات الإسلامية، والتي على إثرها تحطمت إمبراطوريتا الفرس والروم، وهذا ما جعل أنظار القوى الكبرى تتجه بعين المراقب الحذر إلى متابعة تلك الصحوة العربية)) [٢].

وفي الوقت الذي كانت الشكاوى والتقارير والرسائل المتبادلة بين القوى الكبرى والإقليمية حول الخطر السعودي على المنطقة؛ فإن الدولة السعودية كانت ماضية في مشروعها السياسي والعسكري مع إجراء تطوير خطير عليه؛ وذلك من خلال مشروع تعاون قدمته الدولة السعودية؛ ذلك المشروع الذي عرضه الإمام الثالث للدرعية سعود الكبير على والي بغداد علي باشا عام ١٢٢٣هـ/ ١٨٠٨م؛ بإمداده بجيش قوامه مئتا ألفا مقاتل لا يتكلف بالصرف عليهم لتوجيههم نحو ما يريده من حروب؛ في إشارة واضحة إلى مملكة فارس؛ وهو ما يعنى أن الدولة السعودية قد وضعت مشروعا جديدا على طاولة البحث مع والي الشام ووالي العراق بإقامة تعاون سعودي- عراقي- شامي ربما

---

(١) عبد الله بن محمد بن خميس. الدرعية العاصمة الأولى.- ط ١.- الرياض: مطابع الفرزدق التجارية، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص ٢٠٧- ٢١٤.

(٢) محمد بن عبد الله آل زلفة. ذاكرة الأمة.- ط ١.- الرياض: شركة مطابع نجد التجارية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ص ٩٦- ٩٧. محمد آل زلفة. الدولة السعودية الأولى في عهد الإمام سعود الكبير... كما ورد في تقرير جوزيف روسو ...، الدرعية (المرجع السابق)، ص ١٥٢- ١٥٦.

ضد بلاد العجم فارس والدولة العثمانية، تلك الرسالة الحاوية لذلك المشروع العربي التعاوني بين الأطراف الثلاثة [١].

وهو ما يشبه معاهدة عسكرية بين البلدان العربية الثلاثة ضد الجانبين الفارسي والتركي، وهي الرسالة التي عقد مجلس شورى خاص بإستانبول لمناقشة خطورة الموقف والتي قامت الدولة العثمانية بشكل فوري بخطوات حاسمة منها عزل عبد الله باشا العظم والي الشام ثم كان مقتل علي الكخيا والي العراق بشكل غامض يدعو إلى الريبة.

ويقول سعود الكبير في تلك الرسالة التي تحمل ذلك العرض السياسي والعسكري ولا تخلو من الترهيب والترغيب: ((...وإني أبشرك بأن إسلامي قد انتشر في كل الأماكن والجبال، والورقة المرسلة هي ورقة الشريف، وإن تسطيري كتابي عليها لم يكن لمجرد قلة وجود الورق؛ بل لأدلل بها على إقرار الشريف وأهل الحرمين على ما أنا عليه من دين، وعلى صحة إسلامي، ولتعرف قولهم ببطلان الأديان الأخرى وإن مجيئنا لطرفكم لنجدكم في رأس الهندية وعلى نية مواجهتكم، ولكن الله تعالى لم ييسر لنا هذا التلاقي، وهذا عذر لك.

هذا وإن فئة من رجالي اتجهت بالسلالم نحو النجف الأشرف، ولما لم تصل السلالم القلاع الطولانية عادت تلك الفئة، ولم أكن معها، فإذا هداك الله للإسلام؛ فإني أبشرك بأن أجعل في خدمتك ٢٠٠.٠٠٠ من الرجال، لا تلتزم بإعالتهم، فيكونون تحت تصرفك في توجههم حيث تريد من الأطراف وما ترغب من حروب، لقد دخلت الشام في إسلامي وإن مقدمي رجالنا الذين قصدوا الحج في هذه السنة، قد تعاهدوا مع

---

(١) السيد أحمد مرسي عباس، شريف مكة بين قوتين، مجلة الدارة، تصدر عن دارة الملك عبد العزيز، العدد الأول، السنة الثانية/ ربيع الأول عام ١٣٩٦هـ- مارس ١٩٧٦م، عدد ١، السنة الثانية، ص ١٦٩ ص ١٧١. انظر أيضا: جميل بيضون، شحادة الناطور وعلي عكاشة. تاريخ العرب الحديث.- ط ١.- إربد: دار الأمل للنشر والتوزيع، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ص ٩٠. عبد الكريم رافق. العرب والعثمانيون، جامعة دمشق، ١٩٨٢م، ص ٣٩١.

أربع باشوات وقد دخل الشريف في الإسلام، كما دخل عبد الله باشا بن العظم وتعهدا على ما هو حسن وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم)) [١].

لقد كان سعود بن عبد العزيز من خلال هذه الرسالة ((يبلغ الدولة العثمانية بانتهاء سيادتها على كل أرض الجزيرة العربية، بل وباستعداده لمقاومة الدولة العثمانية بجيش قوامه مئتا ألف جندي يتحرك من العراق لغزو الدولة في عقر دارها)) حسب رأي أحمد مرسي [٢]، وقد يكون في هذا الرأي مبالغة، إذ من الصعب علينا أن نتصور أن سعود الكبير يطمح إلى ما هو أكثر من إبعاد النفوذ العثماني من بلاد العراق والشام على وجه الخصوص؛ لأنهما كانتا تحت سطوة ضرباته، وعلى أية حال فقد كانت هذه الرسالة بعد ضم الدرعية للحرمين الشريفين.

وقد ناقش مجلس مشورة أمر السلطان بعقده لمناقشة مضمون رسالة الشريف لسعود ورسالة سعود لباشا بغداد برئاسة شيخ الإسلام وأعدت مضبطة عرضت على السلطان فصدر أمر سلطاني بالتفريق بين ما هو ممكن إجراؤه وما هو محال، ورأى المجلس الذي قرئ عليه نص رسالة سعود الكبير أن الورقة هي من أوراق الشريف الذي ختمها بختم مغاير للختم المعروف لدى السلطنة العثمانية، وأن الشريف ربما كان مضطرا للخضوع للدرعية نظرا للقدرات التي يتمتع بها سعود، وأن انصياع الشريف للدرعية كان ضرورة لا اختيارا، كما رأى المجلس أن القوة الكبرى التي يريد سعود تقديمها لباشا بغداد؛ إنما يريد توجيهها ضد السلطنة العثمانية. كما فهم المجلس أن عبد الله العظم قد قبل مبادئ الحركة الإصلاحية [٣].

(١) السيد أحمد مرسي عباس، المرجع السابق، ص ١٦٩- ١٧٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٧٠- ١٧١.

(٣) الوثائق التركية؛ وثيقة رقم ٣٧٩٢ من رئيس الكتاب إلى السلطان العثماني، دارة الملك عبد العزيز، ترقيم ١/ ٢- ٤٧. السيد أحمد مرسي عباس المرجع السابق، ص ١٧١.

ولعلنا نرى أنه من غير المنطقي أن نتوقع أن سعودا الكبير حين طرح على علي باشا والي بغداد إمداده بجيش قوامه مئتا ألف مقاتل إذا ما قبل مبادئ الحركة الإصلاحية وتطبيقها في بلاد العراق أي إصلاح ديني واجتماعي؛ فإن سعودا الكبير كانت عينه على مملكة فارس بالذات في ذلك المشروع العسكري لقرب بلاد العراق من بلاد فارس وبعدها النسبي عن إستانبول؛ فضلا عن أنه كان بجعبة سعود الكبير مشروع آخر تجاه الدولة العثمانية من خلال والي دمشق عبد الله باشا العظم والذي قامت الدولة العثمانية بعزله؛ فجدد سعود الكبير عرض مشروعه على خلفه يوسف كنج من خلال رسالة أرسلها له عام ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م، فرد عليه بخطاب طويل أصله محفوظ بالأرشيف العثماني تحت تصنيف (H. H. 19550- J) حيث ركز في نهايته على هذا المشروع: ((فإن عملت بذلك فالمسلمون أعوان لك وأجناد بلا ديوان ولو تطلب من المسلمين أجناد جاءك منهم ألف في يوم واحد يحبون الموت مثل محبتهم الحياة، رجاء الجنة وإيمانا بقوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾** (١)، أهل عدد وعدة وحدود وبأس شديد والمدد من رب العالمين)) (٢).

ومن هنا فإن الدولة السعودية الأولى من خلال هذا التعاون العربي بقيادة الدرعية الذي أرادته لتوحيد التوجهات الدينية والسياسية والعسكرية؛ بين الأطراف الثلاثة الذين أرادت تشكيله منهم؛ وهم الدرعية والعراق والشام؛ كانت تضع أهداف هذا الاتحاد بشكل مباشر ضد مملكة فارس تماما كما أنه ضد الدولة العثمانية، ولهذا فمن الصعب التصور أن مثل هذا الموقف للدولة السعودية لم يصل إلى الحكومة الفارسية؛ سواء من خلال الاتصالات الفارسية مع إستانبول، أو مع لندن وحكومة الهند البريطانية وبناء

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٢) سهيل صابان ابن الشيخ إبراهيم حقي، الجزيرة العربية، بحوث ودراسات من وثائق الأرشيف العثماني والمصادر التركية، الرياض، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ١٤٠- ١٤٣؛ نص الخطاب محفوظ بالأرشيف العثماني تصنيف (H. H. 19550- J).

عليه فإننا نجد أن الحكومة الفارسية لديها أسبابها لمعاداة الدرعية ليس فقط بسبب حادثة كربلاء.

ب. موقف المملكة الفارسية من الدولة السعودية:

إذا كانت المملكة الفارسية قد بدأت حربها ضد الدولة السعودية بعد حادثة كربلاء ١٢١٦هـ/ ١٨٠١م؛ فإن هذه الحرب اتخذت محاور عدة؛ المحور الأول منها مساعدة وتأييد القوى المعادية للدرعية في البحرين وعمان سياسيا وعسكريا؛ أما المحور الثاني فقد اتخذ شكلا من أشكال الدبلوماسية فقدم البلاط الفارسي كثيرا من الشكاوى ضد الدولة السعودية لدى إستانبول.

وظل العداء الإيراني للدولة السعودية يتمثل في دعم كل خصم للدولة السعودية، فوعدت حاكم مسقط بدعم عسكري ضد الدولة السعودية، وأمام الموقف الدولي المعادي للدرعية إثر حادثة كربلاء والضغط السعودي على عمان وعجز القوات العمانية عن صد الهجمات السعودية وحلفائهم القواسم بين عامي ١٢١٤ و١٢١٦هـ؛ وفي الطرف المقابل عجز شاه فارس أخذ موافقة باشا بغداد على مرور جيشه عبر شط العرب لمحاربة الدولة السعودية، فقد التقت مصلحة الطرفين العماني والفارسي على القيام بعمل ما ضد الدولة السعودية فمن جانب عمان فرغبتها نقل المعركة من أرض عمان إلى البحرين لتكون –ربما– قريبة من تهديد الأراضي السعودية عبر الأحساء في حين مملكة فارس كانت بحاجة إلى القيام بأي عمل من شأنه الانتقام من الدرعية؛ وكان حاكم مسقط قد احتل البحرين ولكن آل خليفة قد استعادوها بمساعدة من السعوديين؛ ولذا فقد قام شاه فارس بإرسال جيشه نحو عمان عن طريق ميناء بندر بوشهر وانضم إلى القوات العمانية التي تمكنت بمساعدة القوات الفارسية من استعادة البحرين مرة ثانية ولمدة قصيرة، اشتركت بعملية التفافية على النفوذ السعودي بالبحرين مع آل خليفة، ولم

تقتصر المساعدات الفارسية لعمان على عملية البحرين، بل وقفت مع عمان وحرضتها وساعدتها على مقاومة النفوذ السعودي في مسقط [1].

وكان الهجوم السعودي على كربلاء قد أخذ أبعادا خطيرة، حيث بدأت جهات عالية قوية ومتنفذة تحيك الكثير من السياسات التي بدأت تنشط بعد هذه الضربة لكربلاء في عام ١٢١٦هـ/ ١٨٠١م، فقد بدأ حكام البحرين يمنون أنفسهم بالتخلص من النفوذ السعودي من خلال المساعدات الفارسية؛ مثلما تم إبعاد النفوذ العماني من البحرين بالمساعدة السعودية.

ولعل القوى الكبرى في الخليج العربي وفي مقدمتها بريطانيا في الهند التي أصابها القلق من توسع الدرعية نحو الخليج والعراق وبلاد الشام، وكذلك مملكة فارس التي أصيبت بضربة قوية في كربلاء تلك المدينة ذات الطبيعة المقدسة حسب مذهبها الشيعي، إضافة إلى الدولة العثمانية؛ فضلا عن القوى الإقليمية بالخليج كعمان والبحرين والكويت التي رأت أن المد السعودي قد خرج من وسط جزيرة العرب على حساب سيادتها واستقلالها، كما فعل العرب الأوائل في صدر الإسلام من قبل وفق وصف روسو القنصل الفرنسي بحلب.

وهو ما جعل آل خليفة يعملون على تشكيل قوة من أطراف متعددة شارك فيها إلى جانب البحرين كل من سلطان عمان والعتوب والفرس، بحيث تم لهم السيطرة على الحامية السعودية، واعتقال رئيس تلك الحامية فهد بن سليمان بن عفيصان رهينة، مما حدا بأحد المؤرخين أن يقول: وساعدت الحكومة الفارسية آل خليفة في استرداد البحرين من تحت سيطرة آل سعود؛ بينما رأيناها من قبل تمد يد المساعدة لسلطان مسقط ضد آل خليفة وحلفائهم السعوديين ونستخلص من ذلك أن الحكومة الفارسية؛ كانت على استعداد دائم لتقديم المساعدات العسكرية اللازمة، لكل من يرغب في الوقوف في وجه

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المرجع السابق، ص ٢٩٠. ابن عثيمين، المرجع السابق، ج ١، ص ١٦٥.

التوسع السعودي أو يعلن الخروج عن طاعة الدرعية؛ وإن كان الذي يطلب المساعدة يخالفها في المذهب، ولكن يتفق معها في الهدف وهو القضاء على نفوذ الدولة السعودية والمبادئ التي تدعو إليها، بيد أن حاكم البحرين العام إبراهيم بن عفيصان لجأ إلى جابر بن رحمة الذي كان حليفا للدرعية أو متعاطفا معها، وشنوا هجوما مضادا لكنه لم ينجح باستعادة البحرين عام ١٨١٠م، ويبدو أن الإمام سعود قد اضطر إلى الإفراج عن رهائن آل خليفة بالدرعية مقابل الإفراج عن أفراد الحامية السعودية هناك (١).

ج. مشاركة مملكة فارس في الحرب ضد الدرعية:

لاشك أن الحرب التي شنها محمد على باشا والى مصر العثماني ضد الدرعية بين ١٢٢٦هـ- ١٢٣٣م لم تكن حرباً بين ولاية مصر العثمانية وبين الدرعية؛ فولايات الدولة العثمانية كالعراق والشام فشلت فشلا ذريعا في حربها وحملاتها ضد الدرعية بالرغم من تفوق جيش العراق من حيث العدد وقوة التسليح على جيش الدرعية؛ غير أن الحملات التي شنها محمد علي باشا ضد الدرعية كانت تتخذ طابع تحالف دولي كبير؛ ليس فقط من حيث تقديم الأسلحة الفرنسية الحديثة؛ إلى جانب مصانع الأسلحة الأحدث عالميا وقتئذ لمحمد علي؛ لتسهيل نصره في هذا الحرب فحسب؛ وليس فقط بسبب تدريب كوادر الجيش المصري من قبل ضباط أوربيين؛ بل لأن كثيرا من القادة الميدانيين لتلك الجيوش الغازية للأراضي السعودية هم ضباط أركان أوربيون فرنسيون وإيطاليون وبعضهم غير معروفة جنسياتهم (٢).

---

(١) مفيد الزبيدي. موسوعة تاريخ المملكة العربية السعودية "الحديث والمعاصر".- ط ١.- الأردن، عمان: دار أسامة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م، ص ٢٢- ٢٣. عبد الرحيم عبد الرحيم، المرجع السابق، ص ٢٩١. سي يو اتجيسون بي سي إس. السعودية والإمارات العربية وعمان في الوثائق البريطانية؛ ترجمة عبد الوهاب القصاب.- ط ١.- بيروت: الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٧م- ١٤٢٧هـ، ص ١٩.

(٢) وثيقة عن دار الوثائق القومية بالقاهرة وحدة حفظها دفتر ٤ معية تركي، ص ١٤ مكاتبة من شاه العجم إلى والي مصر بواسطة سفير العجم السيد علي خان؛ نقلا عن كتاب رحلة عبر الجزيرة العربية خلال عام ١٨١٩م للكابتن ج، فورستر سادلير

ولكن الهم أن سادلير -وهو فيما يشبه جولة تفتيشية حول مدى نجاح حملة محمد على باشا في رحلته من الأحساء إلى جدة وفق أهداف مرسومة وشديدة السرية [١]-؛ فقد لاحظ أن أحد قادة الجيوش التي دمرت الدرعية وقضت على الدولة السعودية الأولى كان فارسيا، حيث قال في معسكر من معسكرات جيش التحالف هذا قرب الحناكية في عام ١٨١٩م ((وفي هذا المكان وجدنا مركزا للأتراك تأمر عليهم رجل يدعى عجم أوغلان وهو رجل فارسي، برهن على أنه جندي مضياف ومنتم إلى تبريز. عاملني باهتمام بالغ ...)) [٢].

ولعل هذا يعد دليلا قويا على أن مملكة فارس قد أرادت أو أنها دعيت من قبل قوى أخرى فوافقت على مشاركة رمزية ربما بكتيبة أو من خلال قائد أو قادة ميدانيين كهذا القائد الذي قابله سادلير؛ تماما مثلما فعلت فرنسا ضد الدولة السعودية؛ ولعله من الصعب التصديق أن هذا القائد الفارسي قد انضم إلى هذا الجيش -الذي كان يعج بالجنسيات المختلفة من كل الملل والنحل [٣]- بناء على رغبة شخصية لديه في وقت

طبع ونشر وترجمة سعود غانم الجمران العجمي، ص ٣١٦- ٣١٨؛ انظر أيضا: كريم طلال الركابي. التطورات السياسية الداخلية في نجد.- ط ١. بيروت: الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٤م- ١٤١٥هـ، ص ٦٥.

(١) سادلير، المصدر السابق، ص ٦٨، ٧١، ١٠٢، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٦، ١١٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٦.

(٣) ذكر الجبرتي المؤرخ المصري أن الجيش الذي قاده طوسون باشا في وادي الصفراء كان معظمه من غير المسلمين، حيث أكد في نص عن ضابط مصري شارك في تلك المعركة كشاهد عيان: ((ولقد قال لي بعض أكابرهم من الذين يدعون الصلاح والتورع: "أين لنا النصر.. وأكثر عسكرنا على غير الملة، وفيهم من لا يتدين بدين، ولا ينتحل مذهبا، وصحبتنا صناديق المسكرات ولا يسمع في عرضينا آذان، ولا تقام به فريضة، لا يخطر في بالهم ولا في خاطرهم شعائر الدين، والقوم إذا دخل الوقت أذن المؤذنون وينتظمون صفوفا خلف إمام واحد بخشوع وخضوع، وإذا حان وقت الصلاة والحرب قائمة، أذن المؤذن وصلوا صلاة الخوف فتتقدم طائفة وتتأخر الأخرى للصلاة، وعسكرنا يتعجبون من ذلك؛ لأنهم لم يسمعوا به فضلا عن رؤيته، وينادون في معسكرهم: هلموا إلى حرب المشركين، المحلقين الذقون المستبيحين الزنا واللواط، الشاربين للخمور، التاركين الصلاة الآكلين الربا، القاتلين الأنفس، المستحلين الحرمات، وكشفوا عن كثير من قتلى العسكر، فوجدوهم غلفا غير مختونين، ولما وصلوا بدرا، واستولوا عليها وعلى القرى والخيوف -وبها خيار الناس وبها أهل العلم الصلحاء- نهبوهم، وأخذوا نساءهم وبناتهم وأولادهم وكتبهم، فكانوا يفعلون فيهم ويبيعونهم من بعضهم لبعض ويقولون

تؤكد فيه الأدلة التاريخية أن حرب محمد علي باشا كانت حربا أو تحالفا دوليا ضد الدولة السعودية الأولى وقد ناقش الباحث هذه القضية في بحث آخر ليس هنا موقعه.

المبحث الخامس- موقف مملكة فارس من سقوط الدرعية:

إن المشاركة الرمزية في هذه الحرب ضد الدرعية من قبل مملكة فارس من خلال هذا القائد العسكري أو أكثر؛ تتسق مع موقف ملك فارس السياسي ضد الدولة السعودية؛ حيث ظلت سياسته عدائية وبشكل مطلق تجاه الدولة السعودية حتى نهايتها؛ بحيث إنه ما أن تمكن محمد على باشا من إسقاط الدرعية وتدميرها؛ حتى كان لهذا الخبر وقع سار وفرح كبير في البلاط الفارسي، حتى أن الشاه فتح علي القاجاري ١٧٩٧- ١٨٣٤/ ١٢١٢- ١٢٥٠هـ بعث برسالة تهنئة إلى محمد علي باشا يهنئه على هذا النصر حيث يقول فيها: ((خطاب يفرح الدهر... إلى الأمير الكبير... الفاتح لحصون المفسدين محمد علي باشا... أنه قد بلغ إلينا... أنباء ظفرك ونصرك.. فاطلعنا على ما صنعت في قتال العرب.. حتى وطيت أرجاء التهامه.. وخلصت أرض نجد.. حتى ملأ الأرض ذكرك وبلغ السماء قدرك؛ فلزم على همتنا العالمية، آداء رسوم التهنئة والسلام)) ثم كتب في الحاشية أن خير التحف وأشرف ما يهدى ويتحف... بإبلاغه التحية، ومصحوبا بالهدية، وقد كان عندنا سيف حديد بقي من سالف العهود، وتركه الملوك إلى الملوك، فكانوا يتقلدون به،... حتى انتقل إلى الدولة البهية الخاقانية، ...فخصصناه بك، لما يناسب عزمك في الحد والمضاء" [(١)].

هؤلاء الكفار الخوارج)) انظر: محمد أديب غالب، من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي.- ط ١.- دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ص ١٣٤- ١٣٥.

(١) وثيقة عن دار الوثائق القومية بالقاهرة وحدة حفظها دفتر ٤ معية تركي، ص ١٤ مكاتبة من شاه العجم إلى والي مصر بواسطة سفير العجم السيد علي خان؛ نقلا عن كتاب رحلة عبر الجزيرة العربية خلال عام ١٨١٩م للكابتن ج. فورستر سادلير؛ المصدر السابق، ص ٣١٦- ٣١٨.

ولكن فيما يبدو أن المملكة الفارسية قد حصدت نتائج وخيمة على صعيد قوافل الحجاج الفارسية إلى الديار المقدسة؛ فقد فقد الحجاج الفرس الأمن والأمان الذي فرضته الدولة السعودية خلال العقود الثلاثة الأخيرة على طريق الحج العراقي الذي تسلكه قوافل الحج الفارسية؛ وعادت القبائل البدوية تسطو على تلك القوافل الفارسية فتسلب ما لديها؛ وقد ذكر سادلير أن ملك الفرس أرسل (خان فارسي) حمل رسائل منه وهدايا لمحمد علي باشا يطلب منه حماية الحجاج الشيعة الفرس؛ وأن قافلة الحج الفارسية في تلك السنة التي وصل بها سادلير إلى جدة أبريل ١٨١٩م قد اضطرت إلى أن تدفع لإبراهيم باشا مبلغا كبيرا ليؤمن لهم الحماية لها من المدينة إلى الحناكية فقط وهو الموقع المتقدم الذي يرفض جنود الدولة العثمانية تخطيه عبر الصحراء حيث جرد البدو تلك القافلة بعد عودة الجنود الأتراك من كل ما تملك [(١)].

الخاتمة ونتائج البحث:

كانت جزيرة العرب وكذلك بلاد فارس تضربها الفوضى قبيل انتهاء القرن الثامن عشر؛ وقد ظهرت في جزيرة العرب سلالة آل سعود قادة للحركة الإصلاحية في نجد سياسيا واجتماعيا ودينيا عام ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م؛ مما أهل هذه السلالة أن تفرض الأمن وتتوسع من نجد إلى الأحساء في مطلع عام ١٢١٠هـ/ ١٧٩٥م.

في وقت كانت إيران للتو قد فاقت من حرب أهلية وفوضى عارمة حين تمكنت السلالة الكاجارية (القاجارية) من توطيد الحكم لها في إيران في عام ١٧٩٤م/ ١٢٠٩هـ أي قبل سنة واحدة من بدء سيطرة الدولة السعودية الأولى على سواحل الخليج العربية في عام ١٧٩٥م/ ١٢١٠هـ؛ بيد أن القاجاريين لم يعطوا اهتمامهم للخليج العربي إلا في عام ١٧٩٦م/ ١٢١١هـ؛ ومنذ أن حكمت بلاد فارس سلالة قاجار في أواخر ذلك القرن ١٧٩٦م/ ١٢١١هـ، بدأت بلاد فارس تحاول تجديد اهتمامها في منطقة الخليج

(١) المصدر نفسه، ص ١٥٨- ١٥٩.

وجنوب العراق في ظل تغييرات جذرية على الساحل العربي للخليج؛ وهنا كان التصادم بالمصالح بين الدولة السعودية ذات المذهب السني الحنبلي والدولة القاجارية الفارسية ذات المذهب الشيعي الاثني عشري واردا على أسس مذهبية أكثر منها مصالح سياسية أو اقتصادية وإن كان من الصعب الاستهانة بتلك المصالح السياسية والاقتصادية.

لم تكن هناك حدود برية بين الطرفين كما أنهما لم يمتلكا أي قوة بحرية قوية وفعالة يمكن لهما بها تهديد مصالح بعضهما البعض؛ ولذا ظلت المشكلات المفتعلة كنوع من الحرب الباردة على المستوى الدبلوماسي تعبر عنه مملكة فارس من خلال الوسائط الدبلوماسية مع الدولة العثمانية، بينما اتجهت الدولة السعودية إلى وضع برنامجها الإصلاحي على الطاولة في علاقاتها مع الشعب الإيراني (الفارسي) فالحجاج المارون بالأراضي السعودية نالوا من خلال هذا البرنامج ما يلي:

١. لم يعد أحد من القبائل أو قطاع الطرق قادرا على الاعتداء عليهم أو سلبهم ممتلكاتهم أو الاعتداء على أرواحهم؛ فهم يتجهون إلى الديار المقدسة بحماية عسكرية ومعنوية من قبل الدولة السعودية؛ لتقوم الدولة السعودية بتعويض تلك القبائل عما كانوا يغتصبونه من الحجاج مع محاسبتهم على أي اعتداء على قوافل الحج.

٢. إعداد برنامج ضيافة وتوعية لكافة الحجاج الفرس بمرورهم على الدرعية العاصمة السعودية واستضافتهم من قبل الحكومة السعودية لثلاثة أيام من خلال برنامج ضيافة يتخلله مواعظ وبرنامج دعوي وتوعوي حول العقيدة الإسلامية الصحيحة ومبادئ الحركة الإصلاحية التي تقوم على أسسها الدولة السعودية؛ وهم في طريقهم إلى مكة المكرمة.

ولكن بعض الطبقة السياسية أو الدينية في بلاد فارس أبدت امتعاضها وغضبها من البرنامج الذي اعتبروه أنه قد أعد فسرا؛ وقد احتجت المملكة الفارسية على هذه السياسة السعودية لدى الباب العالي؛ ولعل المسئولين بمملكة فارس لم يعوا بعد —

حينئذ- أن الدولة السعودية هي دولة مستقلة عن الدولة العثمانية قبل قيام مملكة فارس القاجارية نفسها؛ وذلك حين قام ثويني بن عبد الله بحملته عام ١٢١٠هـ/ ١٧٩٥م، ومع ذلك فإنه من المحتمل أن تكون المملكة الفارسية تقدمت بشكاواها بهدف سماح سلطات الدولة العثمانية للجيش الفارسي بالمرور عبر أراضى العراق إذا دعت الضرورة لإعلان الحرب ضد الدرعية.

وقد توصل البحث من خلال تحليل بعض النصوص الواردة في بعض المصادر والراجع غير النجدية أن المملكة الفارسية وقعت اتفاقية معينة لم نجد لها ذكرا في مصادر التاريخ السعودي حول حماية الحجاج الفرس المارين عبر الأراضي السعودية والذين تعرضوا لمنع السلطات الشريفية من الحج ومن خلال قرار عام لكل الحجاج القادمين عبر الأراضي السعودية، ولعل سوء الظن في العلاقات بين الطرفين إلى جانب اختلاف التوجه المذهبي والمصالح السياسية أو ربما لأسباب أخرى ظن المسئولون بمملكة فارس أن السعوديين هم أصحاب القرار؛ ولذلك فإنهم قدموا شكوى إلى الباب العالي في الإستانة (إستانبول) ضد السلطات السعودية.

بيد أن هذه الحادثة ربما نتج عنها فتح باب الحوار والمحادثات بحيث رتبت مسألة مرور الحجاج الفرس عبر الأراضي السعودية نحو الديار المقدسة بالرغم من قرار الشريف غالب الذي أصدره عام ١٢٠٤هـ/ ١٧٨٩م، وقد نتج عن كل ذلك اتفاقية بأن تحرس قافلة الحجاج الفرس قافلة سعودية بداية من أراضي العراق حتى حدود المدينة المنورة؛ ويذكر موسيل أن قيادة الدرعية أولت هذه الاتفاقية جل اهتمامها؛ بحيث كلفت قيادة الدرعية كتائب عسكرية لحراسة تلك القوافل للسنتين الأوليين من توقيعها وهو على الأرجح لعامي (١٢١٣- ١٢١٤هـ/ ١٧٩٨- ١٧٩٩م) ولعله يتوافق مع اتفاق الدرعية مع علي الكخيا الذي صادق عليه باشا بغداد في عام ١٢١٣هـ؛ ومما يثبت وجود مثل هذه الاتفاقية هو إجراء محادثات بين والى بغداد سليمان باشا من خلال مبعوثه عبد العزيز الشاوي وحكومة الدرعية بعيد نهب وقتل قبيلة الخزاعل للقافلة السعودية؛ وكذلك

من خلال أمير الحج العراقي ووالي جدة مكلفا من والي بغداد حول المشكلات التي توتر العلاقات بين الإمام عبد العزيز بن محمد والشريف كقضية الحج عموما حسب الوثائق التي رجع إليها الباحث؛ إلى جانب ما يذكره بعض المؤرخين عن صفة "الحاج المعاهد" على حجاج الشيعة الفرس حسب تعبير مؤلف كتاب كشف الشبهات؛ ولكنه من غير الواضح ما إذا كانت تلك الاتفاقية قد ألحقت باتفاقية علي الكخيا مع سعود الكبير التي وقع عليها سليمان باشا في بغداد مع مندوب سعودي أرسل لذلك الغرض أم أنها قد وقعت بعد ذلك.

ولقد توترت العلاقات السعودية الفارسية من خلال مشكلات متعددة أخرى كالتدخل السعودي في العراق من خلال ضربه مدينة كربلاء عام ١٢١٦هـ/ ١٨٠١م ذات الأهمية لدى الشيعة؛ مما دفع البلاط الفارسي إلى أن يجبر موظفيه على لبس السواد حدادا عاما على تلك الحادثة؛ وطلبت دولة فارس من العراق السماح لجيشها بالمرور عبر الأراضي العراقية لحرب السعوديين وهو أقصى درجات التوتر في العلاقات بين الطرفين على الإطلاق؛ بحيث أوصلت تلك الأزمة وما لحقها من قتل مجموعات كبيرة من الحجاج الشيعة الفرس وأسر ما يزيد على مئتين منهم؛ بحيث توسط القنصل البريطاني في البصرة السير هارفردجونز بريدجز ودفع مبالغ جمعت من خلال اكتتاب شعبي عام لإطلاق سراحهم؛ كل ذلك أوصل تلك العلاقات السعودية الفارسية إلى المواجهة غير المباشرة.

ومن هنا فقد عملت مملكة فارس على مساعدة كل مناوئ للدولة السعودية وهو ما حصل من وقوفها مع أمير البحرين وسلطان عمان وتقديمها مساعدات لهما ضد الدرعية.

وقد أثبت البحث أن السلطات السعودية -ومن خلال اعتراف شرائح كبيرة من المؤرخين- قد أمنت طرق الحجاج ومنهم الحجاج الفرس الشيعة وقامت بعمل برامج ضيافة وتوعية ودعوة وكان هدف تلك البرامج تعريف الحجاج بمنهج الدعوة ومبادئها

وهو -ما أقلق الشريف غالب وجعله يمنع الحجاج من القدوم عبر الأراضي السعودية بحجة أن أتباع الدولة السعودية ليسوا على المنهج الصحيح؛ ويجب حماية الحجاج من الاختلاط بهم- كما منعت القبائل التابعة لها من أخذ أي ضريبة على الحجاج بأي شكل من الأشكال؛ وقدمت الحكومة السعودية لتلك القبائل مبالغ من قبلها عوضا عما كانوا يأخذونه منهم؛ وشتان بين موقف السعوديين من الحجاج الشيعة الفرس وبين حكام الحجاز قبل ضمه إلى الدولة السعودية، حيث كانوا يأخذون ضريبة على كل حاج من الشيعة يريد الحج إلى مكة المكرمة.

ولعل الحرب الباردة بين الطرفين كادت تتحول إلى حرب عسكرية مباشرة من خلال عدة أشكال؛ فالشكل الأول حين أعلن تأهب الجيش الفارسي للحرب ضد الدرعية بعد ضربة كربلاء مباشرة في عام ١٢١٦هـ/ ١٨٠١م؛ أما الشكل الثاني فهو في دعم بلاط فارس للقوى الإقليمية بالخليج في عمان والبحرين ضد محاولات الدرعية إخضاع تلك الأقاليم لنفوذها بما في ذلك من دعم سياسي وعسكري ومادي. أما الشكل الثالث فهو من خلال مشروع الإمام الثالث للدرعية سعود الكبير الذي عرضه على والي بغداد علي الكخيا عام ١٢٢٣هـ/ ١٨٠٨م؛ بإمداده بجيش قوامه مئتا ألف مقاتل لا يتكلف بالصرف عليهم لتوجيههم نحو ما يريده من حروب؛ في إشارة واضحة إلى مملكة فارس؛ وهو ما يعنى أن الدولة السعودية قد وضعت مشروعا جديدا على طاولة البحث مع والي الشام ووالي العراق بإقامة تحالف سعودي -عراقي- شامي ربما ضد بلاد العجم مملكة فارس والدولة العثمانية، تلك الرسالة الحاوية لذلك المشروع العربي التعاوني المبكر بين الأطراف الثلاثة وهو ما يشبه معاهدة عسكرية بين المناطق العربية الثلاث ضد فارس والعثمانيين، وهى الرسالة التي عقد من أجلها مجلس شورى خاص بإستانبول لمناقشة خطورة الموقف، حيث قامت الدولة العثمانية بشكل فوري بخطوات حاسمة منها: عزل عبد الله باشا العظم والي الشام، ثم كان مقتل علي الكخيا والي العراق بشكل يدعو إلى الريبة.

وقد ظلت الدولة الفارسية تنظر بعين العداء والشك والريبة إلى الدولة السعودية حتى سقوطها، حيث هنأت محمد علي باشا وأهدته سيفا حديديا متوارثا فرحة بتخريبه الدرعية؛ وقد أثبت البحث مسألة مشاركة بلاد فارس في حرب الدرعية التي انتهت بتدميرها سواء بمجهود حكومي أو بشكل فردى لقادة فرس شاركوا في حرب الدرعية تحت سمع وبصر حكومة فارس؛ حيث ذكر سادلير أنه قابل قائدا فارسيا كان يقود ويرأس فرقة من الجيش الذي دمر الدرعية كقائد لمعسكر من معسكرات جيش التحالف هذا قرب الحناكية في عام ١٨١٩م واسمه عجم أوغلان من مدينة تبريز.

وبالرغم من الفرحة العارمة التي اجتاحت البلاط الفارسي إثر سقوط الدرعية غير أن قوافل الحج الفارسية قد دفعت ثمنا باهظا بعد سقوط الدرعية فقد عادت قبائل البدو تقتل وتسلب تلك القوافل ولم تكن إستانبول أو القاهرة قادرتين على تأمين الطرق لتك القوافل الفارسية.

لقد كانت علاقات الدولة السعودية بالمملكة الفارسية علاقات عدائية على وجه العموم ولم يمنع الصدام العسكري بينهما سوى أنهما لم يمتلكا قوة بحرية كافية ولا حدودا مشتركة وإلا لحسم الصراع عسكريا بين الطرفين، وذلك لاختلاف مذهبيهما ومصالحهما السياسية والعسكرية.

المصادر والمراجع

أ. الوثائق/

١. الوثائق التركية؛ وثيقة رقم ٣٧٩٢ من رئيس الكتاب إلى السلطان العثماني، دارة الملك عبد العزيز، مكتبة الوثائق، ترقيم ١/ ٢- ٤٧ برفقه وثيقة خطاب الإمام سعود الكبير لوالي بغداد علي باشا.

٢. الأرشيف العثماني؛ نص الخطاب محفوظ بالأرشيف العثماني تصنيف (H. H. J -19550) وثيقة خطاب الإمام سعود الكبير لوالي الشام يوسف كنج.

٣. وثيقة عثمانية رقم ٦٧٢٧ في ٩ صفر ١٢١٩هـ من علي باشا والي بغداد إلى السلطان العثماني؛ دارة الملك عبد العزيز؛ وثيقة رقم ٣/ ١/ ٥٤.

٤. الوثائق التركية؛ وثيقة عثمانية رقم ٣٧٨٢ من والي بغداد إلى السلطان العثماني بتاريخ ١٩ رجب ١٢١٨هـ؛ دارة الملك عبد العزيز؛ المركز الوطني للوثائق والمخطوطات، ترقيم ٣/ ١- ٦٥٠.

٥. دار الوثائق القومية- القاهرة؛ وثيقة رقم ١٢٢، دفتر ١٦ بحر برا؛ عريضة عربية العبارة من عبد الله بن سعود إلى الدولة العلية؛ سادلير، وثيقة خطاب الإمام عبد الله ابن سعود الكبير للدولة العلية العثمانية.

٦. دار الوثائق القومية بالقاهرة، وحدة حفظها دفتر ٤ معية تركي، ص ١٤ مكاتبة من شاه العجم إلى والي مصر بواسطة سفير العجم السيد علي خان؛ نقلا عن كتاب رحلة عبر الجريرة العربية خلال عام ١٨١٩م للكابتن فورستر سادلير طبع ونشر وترجمة سعود غانم الجمران العجمي وثيقة خطاب ملك فارس لمحمد علي باشا يهنئه فيها بانتصاره على الدرعية.

ب. المصادر والمراجع:

٧. إبراهيم فصيح بن السيد صبغة الله الحيدري البغدادي. عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد .– ط ١.– بيروت: الدار العربية للموسوعات، ١٩٩٩م.

٨. أحمد جودت باشا. تاريخ جودت؛ تعريب عبد القادر أفندي الدنا؛ تحقيق عبد اللطيف ابن محمد الحميد.– ط ١.– بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٩. ابن بشر. عنوان المجد في تاريخ نجد؛ تحقيق عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ، ج ١، .–ط ٤.– الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

١٠. ابن عثيمين، تاريخ المملكة العربية السعودية، ج ١، .–ط ١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

١١. ابن عثيمين، محاضرات وتعليقات على تاريخ المملكة العربية السعودية.– ط ٢.– الرياض: مطبعة سفير، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

١٢. ابن غنام. تاريخ نجد؛ تحقيق ناصر الدين الأسد.- ط ٤.- بيروت: دار الشروق، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

١٣. أحمد زيني دحلان. تاريخ إشراف الحجاز ١٨٤٠- ١٨٨٣ خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام؛ تحقيق وتحليل محمد أمين توفيق.- ط ١.- بيروت: دار الساقي، ١٩٩٣م.

١٤. إيف بيسون. ابن سعود ملك الصحراء تأسيس المملكة العربية السعودية؛ ترجمة عبد الله بن حمد الدليمي وعبد الله بن الربيعي.- الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

١٥. الطبري. تاريخ الرسل والملوك؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج ٣.- القاهرة، مصر: دار المعارف، ١٩٦٢م.

١٦. ألويس موسيل، آل سعود: دراسة في تاريخ الدولة السعودية؛ ترجمه عن الألمانية سعيد ابن فايز السعيد.- ط ١.- بيروت: الدار العربية للموسوعات، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

١٧. بوركهارت. مواد في تاريخ الوهابيين؛ ترجمة عبد الله صالح العثيمين، جامعة الملك سعود.- ط ٢، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

١٨. جي بي كيلي. الحدود الشرقية لشبه الجزيرة العربية؛ تعريب خيري حماد.- القاهرة: دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٦٩م.

١٩. ج. فورستر سادلير . كابتن. رحلة عبر الجزيرة العربية خلال عام ١٨١٩م طبع ونشر وترجمة سعود غانم الجمران العجمي، ص ٣١٦- ٣١٨. انظر أيضا كريم طلال الركابي، التطورات السياسية الداخلية في نجد.- ط ١.- بيروت: الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٤م- ١٤٢٥هـ.

٢٠. ج. لوريمر. دليل الخليج القسم التاريخي، طبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، ج ٣.

٢١. سعيد باديب. العلاقات السعودية الإيرانية ١٩٣٢- ١٩٨٢م.- ط ١.- لندن: دار الساقي، ومركز الدراسات الإيرانية العربية، لندن، ١٩٩٤م.

٢٢. سهيل صابان ابن الشيخ إبراهيم حقي. الجزيرة العربية بحوث ودراسات من وثائق الأرشيف العثماني والمصادر التركية، الرياض، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ١٤٠- ١٤٣؛ نص الخطاب محفوظ بالأرشيف العثماني تصنيف (H. H. 19550- J).

٢٣. سي يو اتجيسون بي سي إس. السعودية والإمارات العربية وعمان في الوثائق البريطانية؛ ترجمة عبد الوهاب القصاب.- ط ١.- بيروت: الدار العربية للموسوعات، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م.

٢٤. صادق حسن عبدواني وجمال زكريا قاسم. علاقات الدولة السعودية الأولى مع: دول شرق الجزيرة العربية عمان ساحل عمان قطر البحرين خلال ١٧٥٠- ١٨٢٠م.- الفجالة: دار الجيل للطباعة.

٢٥. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم. الدولة السعودية الأولى ١٧٤٥- ١٨١٨م/ ١١٥٨- ١٢٣٣هـ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية.- ط ٢، ١٩٧٥م.

٢٦. عبد الفتاح أبوعليه. دراسة حول المخطوط التركي، حجازسياحتنامة سي "السياحة الحجازية" لـ سلويلمز أوغلو شفيق بن علي كمالي باشا.- الرياض: دار المريخ للنشر، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٢٧. علي الوردي. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج ١.- ط ٢.- قم: المكتبة الحيدرية، ١٣٧٨- ١٣٧٩هـ.

٢٨. فيصل بن سلمان آل سعود. إيران والسعودية والخليج، سياسة القوة في مرحلة انتقالية ١٩٦٨- ١٩٧١م؛ ترجمة نسرين ناضر.- ط ١.- بيروت: دار النهار للنشر، ٢٠٠٦م.

٢٩. قورشون. العثمانيون وآل سعود في الأرشيف العثماني ١٧٤٥- ١٩١٤م.- ط ١.- بيروت: الدار العربية للموسوعات، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.

٣٠. كارين آرمسترونج. الحرب المقدسة، الحملات الصليبية وآثرها على العالم اليوم؛ ترجمة سامي الكعكي.- ط ١.- بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٤م.

٣١. كريم طلال الركابي. التطورات السياسية الداخلية في نجد.- ط ١.- بيروت: الدار العربية للموسوعات، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٣٢. محمد أديب غالب. من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي.- ط ١.- الرياض: دار اليمامة للبحث والنشر والترجمة، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

٣٣. محمد بن عبد الله آل زلفة. ذاكرة الأمة.- ط ١.- الرياض: شركة مطابع نجد التجارية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٣٤. مفيد الزبيدي. موسوعة تاريخ المملكة العربية السعودية "الحديث والمعاصر".- ط ١.- الأردن، عمان: دار أسامة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م.

٣٥. هارفردجونز برندجز؛ السير. موجز تاريخ الوهابي؛ ترجمة ودراسة وتعليق عويضة ابن متيريك الجهني.- الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

ج. الدوريات:

٣٦. مجلة الدرعية.- الرياض: السنة الأولى، العدد الأول، المحرم ١٤١٩هـ مايو ١٩٩٨م بحث لمحمد بن عبد الله آل زلفة الدولة السعودية الأولى في عهد الإمام سعود الكبير ١٢١٨هـ- ١٢٢٩هـ/ ١٨٠٣- ١٨١٤م العاصمة والحكومة والسكان كما وردت في تقارير جوزيف روسو القنصل الفرنسي في حلب.

٣٧. مجلة الدارة. تصدر عن دارة الملك عبد العزيز، العدد الأول، السنة الثانية- ربيع الأول عام ١٣٩٦هـ/ مارس ١٩٧٦م، العدد ١، السنة الثانية، بحث بعنوان: شريف مكة بين قوتين؛ للدكتور السيد أحمد مرسى عباس.

٣٨. الموسوعة العربية العالمية.- ط ٢.- مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م الجزء الثالث، الجزء العاشر.